اعداد: نغم الصامدة

جامعة الملك فيصل

عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد

كلية الآداب

اسم المقرر

فقه اللغة

استاذ المقررلعام هـ 1439

د/ خليفة الميساوي

المحاضرة الأولى

تعريف اللغة وأهم الآراء حول نشأتها

- تعريف اللغة

اختلف العلماء والباحثون قديماً وحديثاً حول تعريف اللغة ، ولم يتفقوا على كثير من قضاياها المختلفة مما أدى إلى كثرة التعريفات لها ، إذ نجد تعريفات متعددة ولعل السبب في ذلك يعود إلى اتصال اللغة بجوانب الحياة المختلفة مما ترتب عليه ملامستها لعلوم كثيرة، أهمها : علم النحو، علم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الإنسان (الانثروبولوجيا) ، وعلم المنطق والفلسفة ، وعلم التشريح ، وعلم الفيزياء ، وغيرها . مما أدى إلى اختلاف نظرة الباحثين إلى اللغة إذ نظر كل باحث إليها من الزاوية التي تهمه وتخدم مجال تخصصه، فيتطور تعريفها بتطور هذه العلوم المتصلة بها.

ولعل تعريف ابن جنّي (ت:392هـ) أكثر التعاريف دقة وشمولاً عند القدماء حيث يقول : " باب القول على اللغة وما هي : أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "(1) إن تحديد ابن جنّي للغة بأنها أصوات ، وليست أي أصوات ، إنها أصوات رمزية معبرة عما في أذهان المتكلمين من معانٍ وأفكار ، و قد أضيفت إلى هذا التعريف تعريفات أخرى عند المحدثين من أبرزها تعريف دي سوسير الذي اعتبرها نظام ذهني وفرق بينها وبين اللسان والكلام وعرفها سابير بأنها « نظام بشري غير غريزي لتبليغ الأفكار والأحاسيس والرغبات بواسطة رموز مستحدثة بطريقة إرادية» (2)

---

1) ابن جنّي : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب ، القاهرة ، 1952 ، 1 / 33 .

2) انظر كتاب اللغة الصادر سنة 1921 ص 8

وقد ذهب بلوش وتراغر إلى تعريف اللغة بقولهما: « إنها نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية يتم بواسطتها التعاون بين أفراد مجموعة اجتماعية معينة» (1942) ورأى هال أن « اللغة نمط ثقافي منتظم يمكّن الناس من التواصل والتعامل فيما بينهم بواسطة رموز اعتباطية شفوية سمعية متعارف عليها (1968)، أما تشومسكي فقد عرف اللغة بأنها « مجموعة (متناهية أو غير متناهية) من الجمل كل جملة محدودة الطول متكونة من مجموعة محدودة العناصر» (1957). تنظر هذه التعريفات إلى اللغة على أنها مجموعة من الرموز وضعت لتسهيل عملية التواصل بين الناس.

ويجمع أنيس فريحة معظم خصائص اللغة في تعريف واحد يرى أنه أشمل تعريف لها فيقول : " اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية ، ثقافية مكتسبة ، لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد ، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتَسبت عن طريق اختبار معاني مقرّرة في الذهن وبهذا النظام الرمزي الصوتي ، تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل "(1)

---

1) أنيس فريحة : نظريات في اللغة ، ط 1 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1973م ، ص14.

ـ نشأة اللغة

اللغة ظاهرة اجتماعية هامة ، عرفها الإنسان منذ بداية حياته وعجز عن تحديد نشأتها ، فمنذ القدم اهتم الباحثون بنشأة اللغة في محاولة لسبر أغوار هذا الموضوع ، فتناولتها الدراسات والبحوث، ولم يتمكن الباحثون قديمًا وحديثًا من الوصول إلى نتيجة يقينية تخص نشأتها و يمكن الاعتماد عليها في تحديد الكيفية التي نشأت اللغة بها ، وفشلت كل محاولاتهم فشلاً ذريعاً ، وأصبح البحث في هذا المجال من الأبحاث لا طائل منه، إذ لا يستطيع الباحث أن يصل إلى نتيجة علمية مقبولة في هذا المجال مما حدا بالجمعية اللغوية في باريس أن تقرر في أول نظام لها صدر عام 1866م " عدم السماح بمناقشة أي بحث من البحوث يتناول أصول اللغة " (1)

1) جورج مونان : تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين ، ترجمة : بدر الدين قاسم ، مطبعة جامعة دمشق ، 1392هـ = 1972م ، ص 16•

ومع كل ذلك لم ينقطع بعض الباحثين اللغويين في العصر الحديث عن البحث في هذا المجال وأفرد له جزءاً من بحثه ، وقد ظهرت عدة آراء حول نشأة اللغة يمكن ردها إلى النظريات التالية :

1- نظرية التوقيف

تعتمد هذه النظرية على أدلة نقلية، وتذهب إلى أن اللغة وحي من عند الله ، قال ابن فارس (ت: 395هـ) : " إن لغة العرب توقيف . ودليل ذلك قوله – جل ثناؤه – : ((وعلم آدم الأسماء كلها)) (1) . وهذا النص الذي اعتمد عليه ابن فارس لا يقوم دليلاً على صحة ما أراد فقد يكون تأويله أن الله أقدر آدم على ذلك ، وهذا ما ذهب إليه كثير من المفسرين وأشار إليه ابن جني بقوله : " وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها ، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة ، فإذا كان ذلك محتملاً سقط الاستدلال به " (2)

---

1) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، تحقيق : مصطفى الشويمي ، مؤسسة بدران ، بيروت ، 1963م ، ص 31 .

2) الخصائص 1 / 40-41 .

أما القائلون بهذه النظرية من الغربيين فقد اعتمدوا على ما جاء في سفر التكوين من أن " الله جبل من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء ، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية " (1) ، وهذا النص لا يدل على شيء مما ذهب إليه أصحاب هذه النظرية ولا يحقق شيئاً مما أرادوا إثباته .

---

1) سفر التكوين ، الإصحاح الثاني عشر ، الفقرتين 19 و 20

2- نظرية الاصطلاح :

تذهب هذه النظرية إلى أن اللغة من صنع الإنسان حدثت بالمواضعة والاتفاق ، ومن أنصار هذا المذهب ابن جنّي الذي تحدث عن أصل اللغة أإلهام أم اصطلاح ، فقال : " هذا موضع محوِج إلى فضل تأمل ؛ غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف " (1) ، وذهب إلى هذا الرأي عدد من علماء العصور القديمة كالفيلسوف اليوناني ديموكريت . ومن علماء العصر الحديث : آدم سميث ، وريد ، ودجلد ستيوارت و دي سوسير مؤسس اللسانيات الحديثة.

---

1) الخصائص 1 / 40

ويحاول ابن جني أن يوضح كيف تم التواضع والاصطلاح فيقول : " وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجون إلى الأبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد منها سمة لفظاً ، إذا ذُكر عرف به مسماه ، ليمتاز من غيره ، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف إحضاره إلى مرآة العين ، لبلوغ الغرض في إبانة حاله " (1) . إلا أن كناك من اعتبر أن ما ذهب إليه ابن جنّي غير صحيح ، إذ كيف أصبح في المجتمع حكماء دون أن تكون لهم لغة يتفاهمون بها ويُعرف بها الفصيح والحكيم ، وهذا ما ذكره عبده الراجحي بقوله : " إذ كيف وصل هؤلاء الحكماء أن يكونوا "حكماء" وإذا لم ثمة لغة قبل أن يتواضعوا هم على لغة فكيف تم " التفاهم" بينهم على أن يجتمعوا ليتواضعوا " (2)، ولكن اللسانيات تؤكد ما ذهب إليه ابن جني.

1) الخصائص 1 / 44 . 2) عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1392هـ= 1972م ، ص86 .

3- نظرية محاكاة أصوات الطبيعة
أو نظرية البو- ووBow-wow

تعتبر هذه النظرية أن اللغة نشأت محاكاة وتقليداً لأصوات الطبيعة ، كأصوات الظواهر الطبيعة وأصوات الحيوان والأصوات التي تحدثها الأحداث عند وقوعها كصوت الكسر والضرب والقطع والقلع وغيرها ، ثم تطورت هذه الألفاظ شيئاً فشيئاً وارتقت تبعاً لارتقاء العقل البشري وتقدم الحضارة ، وتعدد حاجات الإنسان إلى أن وصلت اللغة إلى ما هي عليه. وقد ذهب إلى هذا الرأي كثير من الباحثين في العصور القديمة ، وقال بها فريق من القدماء ، قال ابن جنّي : " وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل " (1) .

1) الخصائص 1 / 46-47

ويبدو أن ابن جنّي كان معجباً بهذه النظرية متحمساً للقول بها فقد تناولها في أكثر من موقع في كتابه فأفرد لها باباً سماه (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) زعم فيه أن اللفظة صورة من أصوات الطبيعة وتوحي بدلالتها فقال : " اعلم أن هذا موضع شريف لطيف . فقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته . قال الخليل : كأنهم توهموا في صوت الجُنْدُب استطالة ومدّاً فقالوا : صرَّ ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا : صرصر . وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلَان : إنها تأتي للاضطراب والحركة ؛ نحو النقزان

والغليان والغثيان ، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال .

ووجدتُ أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حدّاه ، ومنهاج ما مثّلاه وذلك أن تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير ؛ نحو الزعزعة والقلقلة والصلصلة والقعقعة والصعصعة والجرجرة والقرقرة ، ووجدت أيضاً (الفَعَلَى) في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة ، نحو : البَشَكَى ، والجَمَزَى ، والوَلَقَى " (1) . ثم قال في موضع آخر : " ولو لم يُتنبّه على ذلك إلا بما جاء عنهم من تسميتهم للأشياء بأصواتها ؛ كالخازباز [الخازباز : الذباب] لصوته ، والبط لصوته ... ونحو منه قولهم .. حاحيتا وعاعيتا وهاهيتا ؛ إذا قلت : حاءٍ وعاءٍ وهاءٍ . وقولهم : بسملتُ وهيللتُ وحولقتُ ؛ كل ذلك وأشباهه إنما يُرجع في اشتقاقه إلى الأصوات . والأمر أوسع " (2) .

---

1) الخصائص 2 / 152-153 . 2) نفسه 2 / 165

وقد عرض لهذه النظرية عدد من اللغويين المحدثين كما فعل يسبرسن الذي فسرها بأنها تذهب إلى أن الألفاظ الأولى كانت تقليداً لأصوات الطبيعة ، وذلك كأن يُسمع (نباح) الكلب فيوضع له اسم مأخوذ من صوته الطبيعي ثم يذكر اعتراض رينان ، وماكس مولار ، على هذه النظرية بأنه ليس من المعقول أن يقلد الإنسان أصوات حيوانات أدنى منه وبأن الألفاظ التي يمكن تفسيرها بأنها تقليد لأصوات الطبيعة قليلة جداً بحيث لا يمكن أن تكشـــــف لنا عن نشـــأة اللغة " (1) .

---

1) فقه اللغة في الكتب العربية ص89 .

وقد لقيت هذه النظرية تأييداً لدى عدد من المحدثين فقد أخذ إبراهيم أنيس على الذين اعترضوا على هذه النظرية ووجهوا لها انتقادات حادة وقالوا إنها لا تصلح أن تكون أساساً لنشأة اللغة فقال : " لا يصح أن ننساق مع بعض المعترضين على هذه النظرية في تهكمهم عليها بأنها تقف بالفكر الإنساني عند حدود حظائر الحيوانات وتجعل اللغة الإنسانية الراقية مقصورة النشأة على تلك الأصوات الفطرية الغريزية لأن وراء هذه الأصوات سوراً حصيناً عنده في الحقيقة تبدأ لغة الإنسان ذات الدلالات المتميزة المتباينة . فالمعترضون يفترضون في هذا النوع من الأصوات عقماً ولا تصلح لأن ينحدر منها تلك الدلالات الإنسانية السامية.

ولكن الواقع يبرهن على أن كثيراً من كلمات اللغات الإنسانية قد انحدرت من تلك الأصوات الغريزية المبهمة ، ثم سمت في تطورها ودلالتها وأصبحت تعبر عن الفكر الإنساني . وإلا فكيف نتصور أن كلمة (الخيل) يشتق منها (الخيلاء) والجبانة بمعنى الصحراء يشتق منها (الجبن) وأن من (سفهت الطعنة أسرع منها الدم وجف) تجيء (السفاهة) إلى غير ذلك من تلك الدلالات المجردة التي انحدرت إلينا من المحسوسات ، أيمكننا إذن أن ندرك أن الكلمات المستقاة من الأصوات الطبيعية قد تتطور في دلالتها حتى تصبح معبرة عن الدلالات الراقية المجردة في الذهن الإنساني " (1) .

---

1) إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط4 ، 1980م ، ص 21-28 .

كما أُعجب صبحي الصالح بما قاله ابن جنّي حول نشأة اللغة تقليداً لأصوات الطبيعة فقال : " فكان لا بد لنا من الاقتناع بهذه النظرية اللغوية التي تعد فتحاً مبيناً في فقه اللغات عامة " (1) . أما أنيس فريحة فالطائر المسمى في الانجليزية Cuckooفيرى " أن لهذه النظرية ما يؤيدها ،

إنما سمي بالصوت الذي يحدثه ، والهرة سُمّيت (مو) في المصرية القديمة ، وفي اللغة الصينية ، نسبة إلى الصوت الذي تحدثه " (2) .

---

1) صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط10 ، 1983م ، ص152. 2) نظريات في اللغة ص 17

ويرى عدد من اللغويين المحدثين أن هذه النظرية هي أقرب النظريات إلى الحقيقة ، وقد أشار علي وافي إلى هذا الأمر بقوله : " وهذه النظرية هي أدنى نظريات البحث العلمي ، وأقربها إلى المعقول ، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات والظواهر الطبيعية والاجتماعية . وهي إلى هذا وذاك تفسر المشكلة التي نحن بصددها ، وهي الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة والعوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره . ولم يقم أي دليل يقيني على خطئها . ولكن لم يقم كذلك أي دليل يقيني على صحتها . وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها وإنما يقرب تصورها ويرجح الأخذ بها " (1)

1) علم اللغة ص 105 .

ويرى أن سبب قرب هذه النظرية من المعقول دون غيرها أنها تتفق مع مراحل ارتقاء اللغة ونموها عند الإنسان الطفل ، واتفاقها كذلك مع الخصائص العامة للغات البدائيين ، يقول : " ومن أهم أدلتها أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الإنسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل . فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام ، يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة والأشياء ...) فيحاكي الصوت قاصداً التعبير عن مصدره أو عن أمر يتصل به . وثبت كذلك أنه في هذه المرحلة وفي مبدأ مرحلة الكلام يعتمد اعتماداً جوهرياً في توضيح تعبيره الصوتي على

الإشارات اليدوية والجسمية ، ومن المقرر أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها النوع الإنساني في هذا المظهر .

ومن أدلتها كذلك أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية في مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الأمم البدائية ، ففي هذه اللغات تكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه "(1) . ورغم كل ما سبق فقد وجه إلى هذه النظرية انتقادات أساسية ، بل إن المنهج العلمي لدراسة اللغة يرفض كل الأقوال السابقة ، فلا يمكن الاعتماد على لغة البدائيين ولغة الأطفال من أجل إثبات نشأة اللغة ، لأنهما لا يساعداننا في الوصول إلى أي شيء يفيدنا في هذا الأمر ، فهي نظرية " تعجز عن أن تفسِّر لنا كيف استُغلّ مبدأ (حكاية الصوت) في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أية علاقة بين معناها وصوتها . ما العلاقة بين لفظة (إبريق) ومعناها ؟ وما العلاقة بين لفظة (المنضدة) ومعناها ؟ وما العلاقة بين لفظ (الكتاب) ومعناه ؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة ، إنما العلاقة بيسكولوجية ، أي من نوع قَرْن الأصوات بصور قائمة في العقل "(2).

1) السابق ص 105-106 . 2) نظريات في اللغة ص18]

رغم كل ما سبق فقد رفضت هذه النظرية رفضاً قاطعاً لاعتبارات جوهرية ، لعل أهمها أن الكلمات التي يمكن تفسيرها بهذه الطريقة قليلة جداً لا يمكن أن تبني عليها نظرية علمية ، " فإذا نظرت في كلمات عديدة يشترك فيها فونيم واحد ، تجد أن معانيها متقاربة . ولكن أن نردّ معاني ألوف الألفاظ إلى ثلاثين أو خمس وثلاثين فونيماً أو وحدات صوتية ، فإننا لا نفسر أصل اللغة بل نزيد في غموض المشكلة . إذ لك أن تسأل كيف تطورت هذه المعاني القليلة التي تمثلها الفونيمات القليلة التي تشكل النظام الصوتي للغة إلى معانٍ لا حصر لها ؟ وهل المفردات العربية المدونة في (لسان العرب) مشتقة من ثمانية وعشرين فونيماً ؟ .

ومن الأمور التي يعتمد عليها في دحض هذه النظرية عدم وجود معنى للصوت المفرد وأنه لا دلالة له ، فلو كان لكل صوت دلالة واضحة محددة لوجب أن تكون كل اللغات لغة واحدة وهذا غير الواقع .

4- نظرية محاكاة الأصوات معانيها ،
Ding dong أو نظرية

قامت هذه النظرية على أساس وجود صلة قوية وثيقة بين ما ينطق به الإنسان وما يدور في فكره ، وهي تدور حول أن الإنسان يرى الأشياء والحوادث في العالم الخارجي فيتأثر بما يرى ، ثم ينطق بأصوات سببها هذا التأثر ، أي أن الألفاظ ليست إلا صدى لمؤثرات خارجية ، وبنى أصحاب هذه النظرية رأيهم على ما يلحظه الإنسان في المحسوسات ، فحركة الجسم تولد صوتاً خاصة بها يختلف عن أي صوت لحركة جسم آخر ، وكل جسم يرتطم بآخر يولد صوتاً معيناً يختلف عن الصوت الناتج من ارتطام ذاك الجسم بجسم آخر غير الجسم الأول ، فالضرب على الحديد يولد صوتاً يختلف عن الصوت الناتج عن الضرب على الخشب ، كما يختلف

عن الصوت الناتج عن الضرب على الصخر ، وسقوط صخرة وارتطامها بالأرض له صوت يختلف عن الصوت الناتج عن سقوط أي جسم آخر .

فتعدد الأصوات يتعدد بتعدد الأشياء التي أحدثتها ، ولعل ما ذكره ابن سينا في كيفية حدوث الصوت وأنه ناتج عن القرع والقلع قريب مما تذهب إليه هذه النظرية ، يقول : " وأما في القرع فلاضطرار القارع الهواءَ أن ينضغط وينفلت من المسافة التي يسلكها القارع إلى جنبتيها بعنف وقوة وشدة وسرعة ، أما في القلع فلاضطرار القالع الهواءَ إلى أن يندفع إلى المكان الذي أخلاه المقلوع منهما دفعة بعنف وشدة . وفي الأمرين جميعاً يلزم المتباعد من الهواء أن ينقاد للشكل والموج الواقع هناك ، وإن كان القرعيّ أشد انبساطاً من القلعي " (1)

---

1) ابن سينا : رسالة أسباب حدوث الحروف . تحقيق : محمد حسان الطيان ويحيى مير علم . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، 1403هـ= 1982م ، ص 57-58
1

وقد رفضت هذه النظرية كذلك لأنها لا تفسر لنا نشأة ألفاظ اللغة كلها ، ولأنها " بُنيت على أساس غامض ، وأحاطها أصحابها أنفسهم بالألغاز والسحر ، مما جعل معظم اللغويين الآن يمرون بها مر الكرام "(1) .

---

1) دلالة الألفاظ ص 25.

5 – نظرية الأصوات التعجبية والعاطفية ، Pooh-poohأو نظرية

تذهب هذه النظرية إلى أن اللغة الإنسانية بدأت في صورة شهقات أو تأوهات صدرت عن الإنسان بشكل غريزي للتعبير عن انفعالاته في فرح أو ألم أو دهشة أو غضب أو حزن أو استغراب أو نحو ذلك من الانفعالات فيرتبط الصوت الصادر عن الإنسان بالحالة التي هو فيها ، فعندما يطأ الشخص جسماً صلباً فإنه يصرخ (أوه ، أو آه) وعندما يضجر من شيء فإنه يتأفف قائلاً (أف) وهكذا . وهذه الأصوات التي أصبحت معبرة عن وضع معين قد تكون مشتركة بين البشر ، ولعل بعض أسماء الأصوات في اللغة العربية يدل على شيء من هذه النظرية (أف ، آه ، أوه ، آخ ، صه ، مه) . إلا أن هذه النظرية رفضت لأنها لا تقدم لنا كيف تتم تلك الشهقات أو التأوهات ، وحاول داروين الربط بين هذه الأصوات وبين تقلصات أعضاء النطق أو انبساطها ، أي أنه حاول تفسيرها تفسيراً فسيولوجياً ، فيقرر أن الشعور بالازدراء أو Poohالغضب يصحبه عادة ميل إلى النفخ بالفم أو من الأنف ومن هنا ينشأ صوت في الانجليزية ، أو (أف) في العربية (1) . 1) السابق ص 23-24

والحقيقة أن مثل هذه الصرخات أو الصيحات لا تصدر عن الإنسان عن وعي وإدراك أو بصورة إرادية ، إنما أصوات فجائية " فينها وبين الكلمات فجوة تجعلنا نعد تلك الأصوات صورة سلبية للكرلام ، فليست تصدر عن المرء إلا حين يعييه القول أو حين يأبى الكلام " (1) . ولهذه الأسباب رفضت هذه النظرية .

---

1) السابق ص 24 .

6- نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية
Yo-he-ho أو نظرية

وملخصها أن اللغة الإنسانية نشأت في صورة جماعية عند قيام مجموعة من الناس بعمل شاق مرهق فإنهم قد يتفوهون بأصوات معينة يجدون في إصدار مثل هذه الأصوات ما يعينهم أو يساعدهم أو يخفف عنهم هذا العمل المضني ، كأن يقوم عدد من العمال برفع شيء ثقيل فيصدرون صوتياً يحدد نقطة البداية ، أو الانظلاق في العمل ، ويلمسون في هذا الصوت شحذاً للهمم والحث على عدم التراخي . وكذلك الحجار الذي يقطع الصخر طيلة النهار فإنه ينفث زفرات تعينه على إنجاز عمله وتقوم بتسليته في يومه . وقد رفضت هذه النظرية كسابقاتها لأنها لا تستطيع أن توضح لنا كيف ظهرت كل ألفاظ اللغة .

هذه هي أهم النظريات التي حاولت تفسير نشأة اللغة ، وقد رفضت جميعها لأنها لم تستطع أن تقدم حلاً معقولاً لنشأة اللغة فهي لم تفسر إلا ناحية قليلة من نواحي اللغة ، ثم إن هذه النظريات لم تفسر لنا متى بدأ الإنسان في استخادم اللغة ، وكأن اللغة عنده بدأت فجأة دون أية مقدمات ، كما أننا لا نستطيع أن نعرف شيئاً من هذا القبيل إلا من خلال الحدس والتخمين وهو ما لا يقبله العلم

المحاضرة الثانية

وظيفة اللغة

للغة وظائف عديدة أهمها الوظيفة التواصلية والتعبيرية والتأثيرية وغيرها ولا تقتصر على نقل المعاني والأفكار وتوصيلها للآخرين ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين الذين حصروا وظيفتها في التوصيل فقط ، لكن الحقيقة غير ذلك ، بل لها عدد من الوظائف الأخرى :

1- الوظيفة التواصلية

ذهب عدد من الباحثين إلى أن اللغة وسيلة من وسائل الاتصال ، أو التعبير عن المعاني ونقل الأفكار ، وقد أشار محمود السعران إلى ذلك بقوله : " الوظيفة الأساسية للغة هي أنها وسيلة من الاتصال ، أو التوصيل ، أو النقل ، أو التعبير ، عن طريق الأصوات الكلامية . وأن ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الأفكار والمعاني والانفعالات والرغبات ... أو الفكر بوجه عام" (1) ، وهو ما أشار إليه أندريه مارتينيه بقوله : " إن الوظيفة الأساسية لهذه الآلة التي هي اللغة ، هي الاتصال "(2) .

---

1) محمود السعران : اللغة والمجتمع ، دار المعارف بمصر ، 1963م ، ص 12 .

2) أميل بديع يعقوب : فقه اللغة العربية وخصائصها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1982م ، ص 22

إذن تمثل الوظيفة الأساسية للغة في التواصل ولكن قد تُستخدم اللغة لتأدية وظائف أخرى تتجلى فيما يلي :

أ- المناجاة والقراءة الانفرادية بصوت عالٍ .

ب- استعمال اللغة في السلوك الجماعي ، كالصلاة والدعاء وغيرهما .

ج- استعمال اللغة في المخاطبات الاجتماعية، مثل لغة التحيات ولغة التأدب والكلام عن الطقس ... .

د- استعمال اللغة أحياناً لإخفاء أفكار المتكلم ، على ما يتضح في لغة السياسة واللصوص وغيرهم(1) . إلى جانب الوظيفة السابقة للغة عدد من الوظائف أهمها أنها :

1) اللغة والمجتمع : ص16-24 •

2 –علاقة اللغة بالفكر

ترتبط اللغة بالفكر ارتباطاً وثيقاً والعلاقة بينهما من الموضوعات الشائكة التي شغلت العلماء والفلاسفة قديماً وحديثاً ، ولا يزال هذا الموضوع يحتل مكانة كبيرة في علم اللغة ، فالعلاقة بينهما علاقة جدلية ، فاللغة لها " تأثير مساعد على مجال التفكير الرمزي وإنها قد تكون ضرورية للمستويات العليا للتفكير المنطقي "(1) وليست الكلمات إلا " علامات حسية على الأفكار ، وهذه الأفكار هي معناها المباشر . فاللغة وسيلة المواصلات للفكر ، أو هي التمثيل الطبيعي والخارجي لحالة داخلية ، أو اللغة عبارة عن سلسلة من الكلمات عن تفكير كامل "(2) .

1) جودث جرين : التفكير واللغة ، ترجمة : عبدالرحمن عبدالعزيز العبدان ، دار عالم الكتب ، الرياض ، 1410هـ = 1990م ، ص112 .

2) فقه اللغة في الكتب العربية : ص74 •

إن الحديث عن الفكر مع إهمال اللغة حديث ناقص ولا ينم عن فهم في العلاقة بينهما ، فالفكر يتعمد في وجوده على اللغة ولا نستطيع أن نتصور الفكر أو أن نتعرف عليه بدون وساطة اللغة " فقد أصبح من الواضح لنا بشكل مطرد أن الحديث عن التفكير مع تجاهل اللغة أمر يفتقر كثيراً إلى التوازن ، نظراً لأن الألفاظ ليست فقط ذات أهمية قصوى في تجارب تعلم المفاهيم ، ولكنها أيضاً الوسط أو القناة الموصلة لجميع أنواع التفكير " (1) .

---

1) التفكير واللغة : ص102

فالعلاقة بين اللغة والفكر علاقة جدلية حتمية ، فهي المعبرة عن الفكر والمساعدة على نموه ، ويؤثر الفكر في نمو اللغة وتطورها " فاللغة ترتقي وفقاً لارتقاء الفكر، إذ هي الفكر ذاته ، والفكر لغة صامتة . ودرجة الارتقاء تبدأ بالحدس ... "(1) فهما يتفاعلان تفاعلاً حتمياً لا بد منه ، فالفكرة لا تكون فكرة ما لم تصبح رمزاً لغوياً " فالتفاعل بين اللغة والفكر أمر واقع . إن ولادة فكرة ما يسبقها عادة نوع من التعبير اللغوي الواضح أو غير الواضح ، ولكن هذه الفكرة المولودة جديداً لا يصبح لها كيان ذاتي ما لم تتلبّس رمزاً لغوياً "(2) .

---

1) كمال يوسف الحاج : في فلسفة اللغة ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ط2 ، 1978م ، ص 217 .

2) نظريات في اللغة : ص59.

وبالرغم من كل هذا الارتباط وهذه العلاقة القوية التي تجعلهما شيئاً واحداً أو كالشيء الواحد ، وأنهما وجهان لعملة واحدة ، يمكن القول أنها علاقة ليست إيجابية مطلقة في جميع الأحوال بل إن فيها من السلبية ما تجعل اللغة معيقة للفكر مقيدة له وذلك من خلال تحديدها لطرائق معينة محدودة للتعبير تحول دون خروج الفكر إلى الآخرين .

3 – اللغة أحد مقومات الوطن والوطنية :

اللغة رابط قوي يجمع كل من يتكلمون بها ، ويصهرهم في بوتقة واحدة من خلال خلق شراكة في الفكر والإحساس والثقافة ؛ لأنها أداة الإبداع وأساس التفكير والترابط بين أفراد المجتمع ، كما تخلق بينهم التآلف والمحبة ، إنها مدعاة للانتماء والوحدة ، فهي الرابط الأقوى الذي يلتف حوله كل الناطقين بهذه اللغة أو تلك ، فهي الوطن

الروحي لكل من يتكلمون بها ، إنها ذاتيتهم المعبرة عنهم ، كما أنها وعاؤهم الفكري ومستودع تراثهم . وقد حرصت الدول على الاهتمام بلغاتها القومية إيماناً منها بأنها هي القادرة على خلق مجتمع موحد مترابط متناغم في كل أمور حياته ، فالمجتمع الذي يتحدث أهله بلغات مختلفة مهدد بالتفكك والانهيار

وقد أدرك الزعماء السياسيون في العالم أهمية اللغة ووظيفتها في توحيد أبناء الوطن والتفافهم حول الأهداف التي ينادون بها ، إيماناً منهم أن الشعور بوحدة الأمة مرتبط أصلاً برباط اللغة التي هي الجامع الأساسي والرابط بين أفراد الأمة ، فأول ما يطالبون به في ثوراتهم ضد المحتل وأملهم في الاستقلال هو تحرير لغتهم لتصبح اللغة الرسمية في كل جوانب الحياة المختلفة سياسية واجتماعية وثقافية وعلمية ، فهذا هو الهدف الأول لبناء الوحدة والتحرير .

4- اللغة وسيلة للترابط الدولي والقومي

إن ما يظهر من هيئات ومؤسسات دولية وإقليمية يدل بوضوح على هذه الوظيفة للغة ، فالكومنولث هيئة تجمع الدول الناطقة بالانجليزية ، والفرنكفونية هيئة تجمع الدول الناطقة بالفرنسية ، وليست جامعة الدول العربية إلا وجهاً من وجوه هذه الوظيفة اللغوية

5- اللغة وسيلة للترابط الاجتماعي

تمثل اللغة ظاهر اجتماعية والرابط الذي يجمع بين أبناء المجتمع الواحد بها يتفاهمون ويتعاونون ، إنها مسؤولة إلى حد كبير عن إقامة العلاقات الودية بين أفراد المجتمع ، وتتجلى هذه الوظيفة في الاجتماعات العامة و في لغة المجاملات ولغة التحيات والسؤال عن الحال والكلام عن الطقس وما إلى ذلك ، فمثلاً لو التقى شخصان لا يعرف كل منهما الآخر في عيادة طبيب ، وبعد قليل يبدأ أحدهما الحديث العام كأن يتحدث عن الطقس أو حديث عن جانب من جوانب الحياة ، فيقوم الآخر بمشاركته حديثه ويستمر بينهما تجاذب أطراف الحديث ، ويتكون بينهما شيء من المودة والألفة وقد ينظر إلى الصمت وعدم المشاركة في الحديث في الاجتماعات أو اللقاءات العامة أنه شيء من التعالي أو عدم الانسجام وقد يتحول إلى سلوك عدائي غير مقبول لدى المجموعة .

6- اللغة وسيلة للتنفيس عن الأحاسيس

تتجلى هذه الوظيفة للغة فيما يصدر عن الإنسان في خلوته عندما يبث آلامه وأحزانه على شكل أشعار حزينة باكية تسعفه في التنفيس عما يجيش في خاطره من أحزان ، بفقد الأهل والأحباب ، وما يعانيه في غربته من وحدة وبعد عمن عاش معهم وألفهم ،

ودون أن يقصد من هذا الأمر نقل معلومة أو توصيل فكرة للآخرين ، فكأنه في هذه الحالة يواسي نفسه ويعزيها وينفّس عما بداخله من أحاسيس " وتبدو الأشكال العليا للوظيفة التنفيسية في التعبير الجمالي . فكل الفن الأدبي تنفيس ، طالما حركته الدوافع الجمالية كالشعر والقصة والمقالات والدراما . وتوصيل الأفكار العلمية غالباً ما يتخذ وظيفة جمالية ، وذلك حين يُعنى الرياضيّ مثلاً لا بالتطبيق العملي للرياضيات بل بجمال التفكير المنظم نفسه ساعياً إلى مشاركة الآخرين في المتعة بهذا " (1) . فكل المشاعر والأحاسيس التي يحاول الإنسان التعبير عنها عندما يخلو لنفسه يمكن أن تكون ضمن هذه الوظيفة اللغوية .

1) ميشال لويس : اللغة في المجتمع ، ترجمة : تمام حسان ، مطبعة الباب الحلبي بالقاهرة ، 1959م ، ص43

7- اللغة وسيلة للتسلية أحياناً :

كثيراً ما يقوم المرء باستخدام أعضائه النطقية من أجل التسلية فقط ، فيتلاعب بألفاظه وما تحدثه من نغمات قاصداً الاستمتاع بصوته والتلذذ بتلك النغمات التي يصدرها وكأنه يلمس في أعضائه النطقية آلات موسيقية خاصة به ، وعليه ان يستغلها ويشغلها ليسلي نفسه ، ولعله يرى أنها " آلة يجب على الإنسان أن يلعب بها ، وهي تحرك النفوس كالموسيقى " (1). فيجعل الإنسان اللغة وظيفة التسلية وتزجية الوقت .

---

1) السابق ص22

من هنا ندرك أن وظيفة اللغة في المجتمع لا تقتصر على الإيصال والتوصيل بل إن لها عدداً آخر من الوظائف لا تقل أهمية عن الوظيفة الأساسية لها ، فاللغة إذن ظاهرة من أهم الظواهر في المجتمع ، إنها " أكثر من واسطة إنها غاية شرط أن نفهمها فهماً دينامياً . هي ليست أجزاء تتركب ، فيما بينها بصورة اصطلاحية. فاللغة أصوات في حروف وحروف في كلمات وكلمات في جمل وجمل في نحو ونحو في بيان والبيان وحدة لا تتجزأ . هو الإنسان رمّة في أفكاره ومشاعره والإنسان كائن مجتمعي واللغة تعكس هذا الإنسان . عليها إذن أن تعكس حياة أمته في مظهريها النفسي والمادي ، هي وحدها المؤتمنة على تاريخه البعيد لأنها ليست كمَّ من الألفاظ الموسيقية"(1)

1) في فلسفة اللغة ص172 .

المحاضرة الثالثة

بين فقه اللغة وعلم اللغة

تعريف فقه اللغة وعلم اللغة :

أجمعت المعاجم العربية على أن الفقه هو العلم ، قال ابن فارس في مادة فقه : " الفاء والقاف والهاء أصل واحد صحيح ، يدل على إدراك الشيء والعلم به ... وكل علم بالشيء فهو فقهه ... ثم اختص بذلك علم الشريعة ، فقيل لكل عالم بالحلال والحرام فقيه " (1)

---

1) أبو الحسين أحمد بن فارس : مقاييس اللغة ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى 1411هـ=1991م ، " فقه 442/4" •

وجاء في لسان العرب : " الفقه : العلم بالشيء والفهم له ، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلوم ... والفقه في الأصل الفهم . يقال : أوتي فلان فقهاً في الدين أي فهماً فيه . قال الله عز وجل : ((ليتفقهوا في الدين)) أي ليكونوا علماء به ، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس فقال : اللهم علمه الدين وفقه التأويل ، أي فهمه وتأويله ومعناه "(1) وفي القاموس المحيط : " الفقه : العلم بالشيء والفهم له ، والفطنة ، وغلب على علم الدين لشرفه "(2) وهكذا ، فإذا كان الفقه يعني العلم فإن البعض يرى أنّ فقه اللغة هو علم اللغة عينه ، ولكن هذا الرأي يخالفه كذلك عدة باحثين.

أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، " فقه 522/13" .

2) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، دار الفكر ، بيروت ، 1415هـ = 1995م ، "فقه 1126 " .

فقه اللغة وعلم اللغة من الناحية الاصطلاحية :

إذا كان هذان اللفظان (فقه ، وعلم) لهما نفس الدلالة ونفس المعنى ، فهل هما كذلك في الاصطلاح ؟

يبدو أن القدماء لم يكونوا يفرقون بين هذين المصطلحين ، والسبب في هذا أن علم اللغة

لم يكن قد ظهر إلى الوجود كمصطلح مستقل ، لذلك نجد كتب اللغويين القدماء تضم موضوعات هذين المصطلحين دون تفريق ، يدلنا على هذا الأمر ما جاء في أشهر كتبهم ، وأهمها ما يلي :

1/ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها:

أولها : كتاب (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) لأبي الحسين أحمد بن فارس ، وهو أول كتاب وصل إلينا يحمل هذا المصطلح " فقه اللغة " ويفهم من عنوان الكتاب أنه يتناول نوعين من الدراسة ، الأول فقه اللغة ، والآخر سنن العرب في كلامها ، ونلحظ في الكتاب خلطاً واضحاً بين ما يصنف اليوم ضمن موضوعات فقه اللغة وما يصنف ضمن موضوعات علم اللغة .

فقد اشتمل الكتاب على قضايا لغوية عامة تتحدث عن نشأة اللغة ، وتطورها ، وأفضلية اللغة العربية ، ولهجاتها وغير ذلك من القضايا التي تصنف ضمن موضوعات فقه اللغة .

كما اشتمل على مسائل صوتية وهي منتثرة في الأبواب النحوية وذلك عند دراسته للحروف .

ومسائل صرفية انتشرت في أماكن مختلفة من الكتاب ، كباب معاني أبنية الأفعال في الأغلب الأكثر وباب البناء الدال على الكثرة ، وباب الفعل اللازم والمتعدي بلفظ واحد ، وغيرها .

كما ضم مسائل نحوية ، مثل حديثه عن أقسام الكلام والحروف ، وحروف المعاني ، النعت وقد أفرد لكل منها باباً خاصاً . كما تحدث عن الإعراب ، ورأى أن علامات الإعراب ذات دلالة على معانٍ فقال : " فأما الإعراب فيه تُميَّز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين " (1)

كما اشتمل على مسائل دلالية تناثرت في أماكن مختلفة من الكتاب كحديثه عن " معاني ألفاظ العبارات التي يعبر بها عن الأشياء "(2) .

2) السابق ص 192. 1) الصاحبي في فقه اللغة ص 190.

إلى جانب مسائل بلاغية تشمل بعض قضايا البيان وبعض قضايا علم المعاني وعلم البديع .

مما سبق ندرك أن ابن فارس قد خلط خلطاً واضحاً بين موضوعات اللغة دون أية إشارة للتفريق بين ما يصنف في إطار فقه اللغة أو ما يصنف في إطار علم اللغة .

2/ فقه اللغة وسر العربية

كتاب الثاني : فهو كتاب (فقه اللغة وسر العربية) لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي (ت429هـ) وقد قسمه مؤلفه إلى قسمين : القسم الأول "فقه اللغة" ضمنه

ثلاثين باباً ، وهو عبارة عن معجم خاص ضمنه مؤلفه الألفاظ التي تتصل بموضوع واحد وهو ما عرف باسم الكليات " وهي ما أطلق أئمة اللغة في تفسيره لفظة كل ، من ذلك : كل ما علاك وأظلك فهو سماء ، كل أرض مستوية فهي صعيد ، كل حاجز بين شيئين فهو مؤبق ... " (1)

---

1) الثعالبي ، أبو منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي ت429هـ : فقه اللغة وسر العربية ، القاهرة ، 1284هـ ، ص 11 •

كما نجد فيه أبواباً تناولت : الأطعمة والأشربة ، أسنان الناس ، الأمراض ، الطول والقصر ، أوائل الأشياء ، وغير ذلك . وكأن كل باب من هذه الأبواب رسالة لغوية من الرسائل التي عرفها العرب في بداية تأليفهم المعجمي .

أما القسم الثاني من الكتاب " سر العربية " فإنه يشتمل على قضايا لغوية مختلفة ، كبعض الأمور الصوتية عند حديثه عن (الإتباع) إلى جانب بعض الأمور الصرفية كحديثه عن (أبنية الأفعال) وحديثه عن (الإبدال) و (في المفعول يأتي بلفظ الفاعل والفاعل يأتي بلفظ المفعول) و (في اشتقاق نعت الشيء من اسمه عند المبالغة " . كما اشتمل على بعض الجوانب النحوية عند حديثه عن الحروف وتقديم المؤخر وتأخير المقدم وغيرها . كما نجد فيه بعض المسائل البلاغية كالحديث عن الاستعارة والتجنيس والطباق والكناية والالتفات .

3/ الخصائص

الكتاب الثالث : هو كتاب (الخصائص) لأبي الفتح عثمان بن جنّي ت392هـ ، وهو من أشهر الكتب اللغوية عند قدماء العرب ، وأوفرها مادة ، وأكثرها دقة ، وقد ضمنه مؤلفه عدداً من القضايا اللغوية كما يلي :

1- جوانب تتضمن البحث في اللغة ، من حيث تعريفها ، ونشأتها ، وتفرعها إلى لهجات وتطورها .

2- مسائل تتعلق بمنهج البحث في اللغة ، كحديثه عن حجية اللغة وجمع اللغة وتعليل ظواهرها .

3- جوانب صوتية : كحديثه عن الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه ، ومضارعة الحركات للحروف والحروف للحركات ، والساكن والمتحرك وغيرها من المسائل التي تصنف ضمن المستوى الصوتي في الدرس اللغوي .

4- جوانب صوتية : كحديثه عن الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه ، ومضارعة الحركات للحروف والحروف للحركات ، والساكن والمتحرك وغيرها من المسائل التي تصنف ضمن المستوى الصوتي في الدرس اللغوي .

5- قضايا صرفية : كحديثه عن الاشتقاق ، والقلب ، والزيادة وغيرها .

6- قضايا نحوية : كحديثه عن النحو والإعراب والحذف (حذف الفعل وحذف الحرف) والبناء .

7- قضايا بلاغية ودلالية : تحدث فيها عن الحقيقة والمجاز وقوة اللفظ لقوة المعنى والدلالة التي قسمها إلى الدلالة اللفظية والدلالة الصناعية والدلالة المعنوية .

يتضح مما سبق أن اللغويين القدماء نظروا إلى كل الموضوعات اللغوية نظرة واحدة ، ولم يفكروا في وضع حد فاصل ينبغي اتباعه بين موضوعات كل مصطلح من المصطلحين (فقه اللغة وعلم اللغة) فخلطوا بينهما في مؤلفاتهم .

وهذا الاتجاه من عدم التفريق بين علم اللغة وفقه اللغة وجد صداه في العصر الحديث لدى عدد من الباحثين العرب ، فذهب علي عبدالواحد وافي إلى أنهما شيء واحد ، وأن فقه اللغة هو أفضل ما يطلق على كل بحث يتناول أية قضية لغوية ، فيقول : " أما بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة ، أشهرها (فقه اللغة) وهذه التسمية هي خير ما يوضع لهذه البحوث ، فإن فقه الشيء هو كل ما يتصل بفلسفته وفهمه الوقوف على ما يسير عليه من قوانين "(1)

1) علي عبد الواحد وافي : علم اللغة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ط9 ، ص 15-16 .

أما صبحي الصالح فيرى أنهما شيء واحد ، لأنه ليس من السهولة تحديد ما بينهما من الفروق الدقيقة ، لذا يرى أن التفرقة بينهما تافهة لا قيمة لها ، يقول : " من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة ، لأن جلّ مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب ، قديماً وحديثاً . وقد سمح هذا التداخل أحياناً بإطلاق كل من التسميتين على الأخرى ... وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضربين من ضروب الدراسة من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما ، وجدناها تافهة لا وزن لها ... وإنه ليحلو لنا أن نقترح على الباحثين المعاصرين ألّا يستبدلوا بهذه التسمية القديمة شيئاً ، وأن يعمموها على جميع البحوث اللغوية ، لأن كل علم لشيء فهو فقه ، فما أجدر هذه الدراسات جميعاً أن تُسمى فقهاً "(1)

1) صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط10 ، 1983م ، ص 19-20 •

ويرى محمد المبارك : " أن علم اللغة بهذا المفهوم الذي بسطناه والذي آل إليه الأمر في تطور البحث اللغوي نرى أن نطلق عليه أحد الاسمين (علم اللغة) أو (فقه اللغة) وكلاهما يفيد المقصود وينطبق على المفهوم العلمي لمباحث اللغة ... وإننا باستعمالنا هذه التسمية وإطلاقنا على هذا العلم أحد الاسمين نكون قد جارينا قدماءنا الذين استعملوهما كليهما وأصابوا كل الإصابة في ذلك " (1)

---

1) محمد المبارك : فقه اللغة دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية ، مطبعة جامعة دمشق ، 1960 م ، ص26 .

وإلى جانب هذا الفريق من الباحثين الذين يرون أن (فقه اللغة) و (علم اللغة) شيء واحد ولا ضرورة للتفريق بينهما ، هناك فريق آخر يرى أن التفريق بين هذين العلمين ضرورة ملحة وأمر واجب . فقد ذهب كمال بشر إلى أن مصطلح (فقه اللغة) عند القدماء كان يدل على نوعين من الأبحاث اللغوية ، النوع الأول يتناول البحث في المعجمات وقضاياها المختلفة وما يدور حولها ، إلى جانب مشكلات الألفاظ من حيث معانيها وسماتها وأصالتها ، وترادفها ، وصورها المجازية والحقيقية وما إلى ذلك . ويتضمن النوع الثاني القضايا اللغوية العامة كالحديث عن أصل اللغة ووظيفتها ومصادرها واللهجات والقياس والتعليل وغير ذلك من هذه القضايا التي تعد مدخلاً لدراسة العلم .

ثم ينتقل إلى الحديث عن وضع هذين المصطلحين (فقه اللغة وعلم اللغة) فيقول : " أما في الحديث فلم يزل (فقه اللغة) يعني البحث في هذه القضايا وأضرابها ، غير أن بعض الدارسين يخلطون بينه وبين علم اللغة بالمفهوم الجديد ، فيطلقونهما في مناقشاتهم كما لو كانا مترادفين ، وهو خلط واضح . ففقه اللغة بمفهومه القديم أو الحديث لا يعدو أن يكون حلقة من حلقات الدرس في علم اللغة ، وبهذا يمكن الاستغناء عنه والاكتفاء بهذا المصطلح العام (علم اللغة) الذي يجري تطبيقه الآن على أي نوع من أنواع الدرس اللغوي "(1)

---

1) كمال بشر : دراسات في علم اللغة ، القسم الثاني ، دار المعارف بمصر ، 1969م ، ص48-49 .

أما عبده الراجحي وبعد أن عرض لآراء العلماء حول نشأة البحث اللغوي وتطوره عند القدماء والمحدثين رأى أن هناك فرقاً واضحاً بين هذين العلمين (فقه اللغة وعلم اللغة) فقال : " ومهما يكن من أمر فإن تطور (علم اللغة) في هذا القرن – على اختلاف مناهجه ومدارسه – قد ساعد على التمييز الواضح بينه وبين (فقه اللغة) (1)"

---

1) فقه اللغة في الكتب العربية ص25.

وبعد أن عرض إلى منهجي العلمين وموضوعات كل منهما عاد ليؤكد على ضرورة الفصل بينهما فقال : " وغني عن البيان الآن أن هناك فرقاً واضحاً بين موضوعي التفريق ينبغي أن يكون واضحاً عند بحث العلمين ومنهجيهما في درس اللغة ، وهذا المنهج اللغوي عند العرب " (1)

---

1) السابق ص29 . وانظر : محمود السعران : علم اللغة ، دار المعارف بمصر 1962م ، ص367 . عبدالصبور شاهين : في علم اللغة العام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط3 ، 1980م ، ص5-6 . محمود فهمي حجازي : علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة ، المكتبة الثقافية ، العدد 249 ، ص6 .

بعد هذه الجولة في عدد من الكتب التي تناولت مفهومي (فقه اللغة) و(علم اللغة) ندرك أن التطور السريع للبحث اللغوي يرى ضرورة التمييز بين هذين المصطلحين ، ولعل أهم الفوارق بينهما تتمثل فيما يلي :

1/المنهج : فمنهج (فقه اللغة) يختلف عن منهج (علم اللغة) فبعد أن حدد دي سوسير De Saussure الإطار العام للسانيات بقوله : " إن موضوع اللسانيات الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها " (1) . التزم علماء اللغة بهذا وقصروا بحوثهم على اللغة نفسها في مستوياتها المعروفة وغرضهم من الدرس اللغة لأجل اللغة ، أما فقهاء اللغة فهم يدرسون اللغة وسيلة إلى غاية ، يدرسونها من أجل معرفة الحضارة والآداب والفنون والقيم والمبادئ وما إلى ذلك ، من هنا ندرك فرقاً واضحاً بين منهجي العلمين يوجب التفريق بينهما ، وهو ما أشار إليه أحد الباحثين بقوله : " إن التفريق بين الاصطلاحين (فقه اللغة وعلم اللغة) واجب للتفريق بين دراسة اللغة باعتبارها وسيلة بين دراستها باعتبارها غاية في ذاتها "(2)

P232 . De Saussure: course in general linguistics – London -1964 – 1)2) w.s.Allen: the linguistic study of languages , Cambridge university Press , 1957 , P3

2/ إن ميدان فقه اللغة أعم وأوسع وأشمل ، فهو يهتم بالجانب اللغوي للأدب وصيغ الفنون المماثلة ، كما يهتم بالجوانب الاجتماعية المختلفة للحياة ، وقد انصب اهتمام فقهاء اللغة على تقسيم اللغات والمقارنة بينها ومحاولة إعادة تشكيل اللغات ، وفهم النصوص القديمة وشرحها للتعرف على القيم الحضارية التي سادت مجتمعاً ما ، من أجل رسم حضارته بكل أبعادها : " ففقه اللغة هو الأرض الواسعة بين (علم اللغة) من ناحية ، وبين الدراسات الأدبية والإنسانية من ناحية أخرى" (1) أما علم اللغة فيدرس ذات اللغة من حيث البناء والتراكيب ولا يتطرق في دراسته إلى جانب من

جوانب الحياة الاجتماعية " وعلم اللغة بمعناه الضيق يركز على التحليل لتركيب اللغة ووصفها باعتبارها ميدانه الأساسي ، وعندما يوسع علماء اللغة ميدان موضوعهم فيعالجون المعنى فإنهم يقتربون من مجال فقه اللغة "(2).

Johnb.caroll.The study of language , Harvard university press. 1959 , P 3 .]1) R.H. 2)Robins , General linguistics , An Introductory survey , London , P.P. 6-7 .

3/ مصطلح (فقه اللغة) سبق مصطلح (علم اللغة) من الناحية الزمنية ، فمصطلح (علم اللغة) حديث عهد ظهر في العصر الحديث ، أما (فقه اللغة) فقد ظهر منذ عصور ما قبل الميلاد ، نعلم إنما جاء " لتوضيح التركيز على التركيب اللغوي دون غيره كأساس للفرق بين الاثنين وذلك واضح في وصف فقه اللغة غالباً بأنه مقارن ، أما علم اللغة فهو تركيبي أو شكلي أي يعنى بالشكل فقط ولا يعنى بما حول اللغة أو ما يتصل بالشكل اللغوي " (1) .

---

1) محمد أحمد أبو الفرج : مقدمة لدراسة فقه اللغة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1966م ، ص 18.

4Science/ منذ ظهور علم اللغة وُصف بالعلم ، وقد ركز الباحثون فيه على هذه التسمية . ولا يوجد من حاول أن يصف فقه اللغة بالعلم .

5/ اهتم فقهاء اللغة – منذ أن بدأوا دراسة اللغة – بالمقارنة بين اللغات ومحاولة إعادة تشكيلها ، ورصد تطورها والتأريخ لها مما جعل عملهم عملاً مقارناً تاريخياً في معظمه ، أما عمل علماء اللغة فهو وصفي تقريري .

بعد هذا العرض لأهم الفوارق بين (فقه اللغة) و(علم اللغة) تجدر الإشارة إلى أن التفريق بينهما واجب لا بد منه ، فعدم التفريق سيؤدي حتماً إلى لبس غير هين لدى كثير من الدارسين والباحثين ، كما لا بد من الإشارة إلى أن الفصل بين هذين العلمين ليس فصلاً مطلقاً فكل مباحثهما وقضاياهما متداخلة ، فلا بد للباحث في علم اللغة أن يلم إلماماً تاماً بالقضايا العامة للغة التي تصنف على أنها مجال في فقه اللغة ، كالحديث عن تعريف اللغة ونشأتها وتطورها والعائلات اللغوية وغيرها . كما لا بد للباحث في فقه اللغة من أن يكون على علم تام باللغة ومستويات درسها (المستوى الصوتي ، والصرفي ، والنحوي ، والدلالي) . فالفصل بين هذين العلمين يكون لغرض الدراسة فقط .

المحاضرة الرابعة

اللغة العربية واللغات السامية

عاشت في أقصى الغرب الآسيوي مجموعة من الأقوام تتقارب لغاتهم , وقامت لهم حضارات متعاصرة أو متعاقبة أطلق عليهم اسم الساميين ,كما أطلق على مجموعة اللغات التي نطقت بها تلك الشعوب اسم اللغات السامية وتضم مجموعة من اللغات هي :اللغة البابلية والآشورية والعربية والعبرية والآرامية والفينيقية والحبشية والسريانية, " وبعضها حي لا يزال يتكلم به ملايين البشر , ويحمل كنوزاً غنية من الثقافة والأدب , وبعضها ميت عفت أثاره بذهاب الأيام"(1) .

---

1) ريجي كمال : دروس اللغة العبرية ,دار العلم للملايين –بيروت1963م ص6, وانظر : اسرائيل والفنون :تاريخ اللغات السامية ,دار القلم –بيروت , ط1 ,1980م ص2.

وأول من أطلق هذه التسمية "اللغات السامية" هو العالم الألماني شلوتزر في أبحاثه وتحقيقاته في تاريخ الأمم سنة 1781م(1) . وقد استخلص هذه التسمية من الجدول الخاص بأنساب نوح عليه السلام الوارد في التوراة : (وهذه مواليد بني نوح سام وحام ويافت .... بنو سام : عيلام وآشور وارفكشاد ولور وآرام ...)(2) .

---

1) تاريخ اللغات السامية ص2, وكارل بروكلمان : فقه اللغات السامية , ترجمة رمضان عبد التواب , الرياض 1977م ، ص11, حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم , دار القلم- دمشق , ط2 ، 1410ه=1990م ، ص9.

2) سفر التكوين ، الإصحاح العاشر.

يلاحظ أن ما جاء في التوراة من أنساب ليس دقيقاً , فقد اعتمدت التوراة في تقسيم الشعوب على الروابط الجغرافية والسياسية والثقافية أكثر من اعتمادها على روابط الدم وأواصر القربى والروابط الشعبية , يؤكد هذا أن نص التوراة السابق قد اعتبر من الساميين وذلك لخضوعهم Elym'eens والعيلاميينLydiensكلاً من الليديين لسلطان الآشوريين وامتزاجهم بهم .

والحقيقة أن لا صلة بين هذين الشعبين والشعوب السامية فهما أجنبيان عن الساميين وأجنبيان أحدهما عن الآخر , فالعلاميون ينسبون إلى الجنس الإيراني , ولم تذكر

المصادر أي شيء عن أصل الليدين كما اعتبر نص التوراة السابق " الفينقيين من الشعوب الحامية , لتعدد الصلات السياسية والثقافية التي كانت تربطهم بالشعوب الحامية المصرية والبربرية , ولما كان بينهم وبين العبريين من عداء وحروب , ولإختلافهم عنهم في النظم الإجتماعية وشؤون السياسة والدين , مع أنهم من أخلص الساميين نسباً وأقربهم رحماً إلى العبريين أنفسهم" (1) .

---

1) فقه اللغة – وافي ص6-7 .

ومهما يكن من أمر فإن نص التوراة السابق يوحي بعدم الدقة والصحة "وقد تسرب إلى نفوس الباحثين شيء من الشك في صحة ما جاء فيه"(1) .

ومع كل هذا فقد أطلق الباحثون على لغات هذه الأقوام اسم "اللغات السامية" ,معتمدين في ذلك على ما تم كشفه من النقوش التي تظهر كثيراً من صلات القربى والترابط بين هذه اللغات , مما أنشأ بينهما كثيراً من الخصائص والمميزات .

---

1) تاريخ اللغات السامية ، ص2 .

الخصائص المشتركة بين اللغات السامية :-

1- تعتمد في الكتابة على الحروف الساكنة Consonants أكثر من اعتمادها على الحروف المتحركة Vowels.

2- ترجع معظم كلماتها إلى أصل ذي ثلاثة أحرف.

3- تتشابه في تكوين الاسم من حيث عدده ونوعه.

4- تتشابه في تكوين الفعل من حيث زمنه وتجرده وزيادته وصحته وعلته.

5- تتشابه في الضمائر وطريقة اتصالها بالأسماء والأفعال والحروف , وفي صوغ الجمل وتركيبها , وفي المشتقات لاسمي الفاعل والمفعول واسمي الزمان والمكان .

6- تكاد تخلو من الأسماء المركبة تركيباً مزجياً إلاّ في ألفاظ العدد نحو :خمسة عشر ,بخلاف اللغة الآرية.

7- تختص بمجموعة أصوات الحلق :الحاء والعين,والغين والخاء ,والهاء والهمزة, وهذه المجموعة موجودة بشكلها الكامل في العربية.

8- توجد فيها مجموعة أصوات مطبقة وهي : الصاد والضاد ,والطاء و الظاء.

9- تحقق الاشتقاق إما بتغيير حركة ,وإما بالزيادة في أحرف الكلمة , وإما بإنقاصها من غير أن تلتزم موضعاً واحداً في هذا التغيير , بخلاف الآرية التي يتحقق فيها الاشتقاق بزيادة أدوات تدل على معنى خاص في أول الكلمة غالباً أو في آخرها

10- تتشابه في كثير من المفردات الأساسية المشتركة وعلى الأخص المفردات الدالة على أعضاء الجسم , وصلة القرابة والعدد وبعض الأفعال وبعض الحروف ومرافق الحياة التي كانت منتشرة في الشعب السامي الأم(1) .

---

1) ينظر في هذه الخصائص والمميزات : تاريخ اللغات السامية ص14-17 . فقه اللغة لعلي وافي ص17-20 . دروس اللغة العبرية ص19-20 . فقه اللغة العربية وخصائصها ص111-112 . حاتم الضامن: فقه اللغة مكتبة الصحابة الشارقة ط1 ,1428ه=2007م ص25-26.

أوجه الخلاف بين اللغات السامية :

ومع هذا التشابه والتقارب بين هذه المجموعة من اللغات , يوجد بينها اختلافات كثيرة تميز كل لغة عن غيرها , وأهم هذه الخلافات ما يلي :

1- الاختلاف في أداة التعريف : فهي في العربية " ال" في أول الاسم , وفي العبرية وبعض اللهجات العربية البائدة حرف "ه" في أول الاسم , وفي السبئية حرف "ن" في آخر الكلمة , وفي الآرامية حرف "آ"في نهاية الكلمة , ولا يوجد في الآشورية البابلية ولا الحبشية أداة للتعريف مطلقاً.

2- الاختلاف في علامة الجمع : فهي في العبرية حرفا "يم" للمذكر و"واو وتاء" للمؤنث , وفي الآرامية حرفا "ين" , وفي العربية يستعمل للدلالة على جمع المذكر السالم "واو و نون ",أو "ياء و نون" في آخر الكلمة ,و" ألف و تاء " في آخر الكلمة للدلالة على جمع المؤنث السالم.

3- الاختلاف في الأصوات العربية "ذ غ ظ ض" لا أثر لها في العبرية , والصوتان " لا وجود لهما في العربية ولا وجود للأصوات " ع ق س" vالعبريان "ب ا" و" ف في البابلية , وأغلب ما يأتي في العبرية بالسين يأتي في العربية والحبشية بالشين والعكس بالعكس (1) .

---

1) تاريخ اللغات السامية ص19-20 ,فقه اللغة لعلي وافي ص21-22 ,فقه اللغة العربية وخصائصها ص112-113.

وبعد هذه الإشارة السريعة إلى هؤلاء الأقوام الذين عاشوا منذ القدم في أجزاء مختلفة من قارتي أسيا وأفريقيا وقامت لهم حضارات متعاصرة أو متعاقبة وأطلق عليهم اسم "الساميون" وعلى لغاتهم اسم "اللغات السامية" , وبالاعتماد على نص من سفر التكوين , وظهر ما يعرف باسم النظرية السامية.

فالسامية تسمية حديثة عهد أول من استخدمها العالم الألماني شلوتزر في أواخر القرن الثامن عشر , فهي تسمية حديثة شاعت وأصبحت علماً على هذه المجموعة من الشعوب عند عدد كبير من العلماء في الغرب ومن سايرهم من العرب "على الرغم أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي , أو إلى أسس علمية عنصرية صحيحة أو وجهة نظر لغوية "(1) .

---

1) أحمد سوسة : حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور , بغداد 1979م ص19.

إن هذا التصنيف للبشر الذي ورد في التوراة ليس إلا من باب الترهات التي دونها الحاخامات ورجال الدين اليهوديين , فهو لا يستند إلى أية حقيقة علمية كما أنه لا يقوم على أية اعتبارات لغوية أو عرقية أو جغرافية , إن شلوتزر الذي اقترح هذه التسمية كان يهدف من ورائها تحقيق أهداف سياسية تخدم مصالح الدول الأوربية الاستعمارية , ويقول الدكتور نعيم فرح : "وقد اكتسبت هذه النظرية مفهوما سياسيا , حيث اهتم بها بعض المستشرقين الأوروبيين لتحقيق خدمات حكوماتهم في استعمارها أقطار الوطن العربي , وكان معظم هؤلاء المستشرقين من رجال اللاهوت أو من اليهود التوراتيين , كما كان بعضهم من الجواسيس والسفراء و رجال الاستخبارات وما شابه ذلك "(1) .

1) نعيم فرح :النظرية السامية مؤامرة استعمارية وصهيونية على العرب , دار حسان للطباعة والنشر-دمشق,ط1 ,1993م ص21

كما تخدم الصهيونية العالمية التي نشطت في تلك الفترة من أجل إقناع يهود العالم بالهجرة إلى فلسطين لإقامة وطن قومي لهم , "وقد أصبحت فلسطين مركزاً يهودياً روحانياً مهماً منذ القرن السادس عشر , أي إبان الفترة التي عاشت فيها سائر الطوائف بالشرق في حالة لا مثيل لها من التردي والركود الفكري "(1) .

---

1) صموئيل أتبخر :اليهود في البلدان الإسلامية , ترجمة جمال أحمد الرفاعي ,عالم المعرفة العدد197,الكويت 1995م ص128.

إن الزعم بوجود جنس سام زعم باطل ووهم لا صحة له , إنه من قبيل الدعاية السياسية التي تهدف إلى تحقيق أطماع استعمارية , والعمل على تحطيم الجذور

التاريخية للأصول العربية وهدم وحدتها , من أجل قطع حاضر هذه الأمة عن ماضيها لتبقى عاجزة عن إدراك ذاتها ومعرفة طاقاتها , إنه زعم من باب الأساطير التي تحدثنا عن أقوام وشعوب ليس لهم وجود في الواقع , كما أنه بعيد عن الموضوعية وليست له أية صفة علمية , لذا فقد رفضه كثير من العلماء يقول سبيتنوموسكاني عند حديثه عن النظرية السامية :"هي نظرية تنتمي إلى ميدان الدعاية السياسية التي عفت آثارها الآن , أكثر مما تنتمي إلى العلم الجاد , وقد نبذها علماء الأجناس عن حق "(1).

---

1) سبيتنوموسكاني :الحضارات السامية القديمة , ترجمة السيد يعقوب بكر , دار الرقي –بيروت 1986م ص50 .

إن هذه الشعوب التي أطلق عليها خطأ اسم "الساميين" هي في الحقيقة الأمر قبائل عربية هاجرت بفعل العوامل الطبيعية من جزيرة العرب بحثا عن الماء والكلأ ,ومنهم تفرعت الأقوام الأخرى , يؤكد هذا القول ما ذهب إليه "كثير من العلماء الباحثين في أصل الأجناس والسلالات إلى أن العرب هم الأصل للعرق السامي , ومن أورمتهم تفرعت الأقوام الأخرى وتشعبت قبائلها , ولهذا الفريق شواهد تاريخية و عرقية و لغوية يدعم بها حجته ويثبت آراءه "(1) .

---

1) محمد سعد المسلم : ساحل الذهب الأسود دراسة تاريخية إنسانية لمنطقة الخليج العربي , دار الحياة – بيروت ص54 .

إذا كنا قد تجرأنا بفرضنا السابق من أن العرب هم الأصل للعرق السامي – إن وجد عرق سام – وأن اللغة العربية هي أصل اللغات السامية , فهل يمكننا أن نتقدم خطوة إلى الأمام في محاولة لإثبات هذا الافتراض ؟.

إن الحديث في هذا المجال شاق ومعقد , لأن جل قضاياه غائمة يلفها الغموض كما أنها متشابكة جدا لا تكاد حدودها تتضح , ولعل السبب في ذلك أن هذا الموضوع بني منذ بدايته على افتراض توراتي لا يقوم على دليل علمي و لا أساس له من الصحة . إن كثرة الآراء وتزاحمها وكثرة التخمينات والتخريجات والاجتهادات في هذا المجال جعلت منه أمرا يصعب اكتشاف كنهه وإدراك غوره , مما جعل من العسير علينا أن نقول فيه بقول أو نجزم فيه بأي قاطع . ولكن بعد طول مراجعة وكثرة إطلاع على كتب التاريخ وكتب تاريخ اللغات واللهجات إلى جانب الكتب التي تبحث في الحضارات القديمة , تجمع لدينا عدد من الآراء والأقوال لعدد كبير من العلماء العرب وغير العرب , وبعد دراسة هذه الآراء وتلك الأقوال وتمحيصها والمقارنة بينها أمكن الاعتماد عليها أو الاستئناس بها من أجل تدعيم فرضيتنا السابق.

وطن الساميين الأصلي :

اختلف الباحثون اختلافاً شديداً في تعيين الموطن الأصلي للساميين وتباينت آراؤهم في تحديد البقعة التي عاش فيها سام بن نوح وذريته , وحاول كل فريق أن يتلمس بعض الأمور التي يدعم بها زعمه , وأن يجد له سندا يعتمد عليه , فلجأ فريق منهم إلى الأساطير والمأثورات القصصية وما دار حول الطوفان وسفينة نوح والمكان الذي رست فيه , ولجأ بعضهم إلى الاعتماد على تشابه بعض الكلمات في لغات تلك الأقوام كألفاظ أسماء النباتات والحيوانات وأعضاء الإنسان , وبعض الظواهر الطبيعية , ولجأ فريق آخر إلى الاعتماد على خصب البقعة التي زعم أنها موطن سام فالأرض الخصبة لابد من أن تكون مكانا للعيش ومهدا للحضارة . ويمكن استخلاص خمسة آراء في تحديد هذا الموطن كلها لا يعتد بها في هذا الأمر ولا يعول عليها في تحديد موطن حقيقي للساميين , وهذه الآراء هي:

- الرأي الأول :

قال به كل من : إرنست رينان , وفرانسوا لنورمان , وفرينز هومل , وبيترز , وأغناطيوس جويدي, ويذهب القول بأن موطن الساميين الأصلي هو شمال شرق جزيرة العرب , أي جنوب العراق , وذلك لوجود بعض الكلمات التي تتشابه في اللغات السامية المختلفة كأسماء النباتات والحيوانات وغيرها , هذا ما جعل جويدي يجزم بأن "سهول العراق لابد أن تكون الموطن الأصلي للساميين , ولاسيما إذا أضفنا إلى ذلك أن البابلية الأشورية توجد منها نصوص مكتوبة منذ الألف الرابع قبل الميلاد , وهي أقدم كتابة في تاريخ الساميين على الإطلاق " (1).

---

1) الساميون ولغاتهم ص12.

ويعلق الدكتور حسن ظاظا على هذا الزعم بقوله :" ولكن هذه النظرية أيضا مجروحة لسبب بسيط جدا , وهو أن أحد الملوك الساميين الأول في العراق وهو الملك سرجون الأول الأكادي " حوالي سنة2600 قبل الميلاد " كتب عن أصله في نقش مشهور ما يفهم منه صراحة أنه وعشيرته نزحوا إلى العراق من شرقي جزيرة العرب "(1) .

---

1) المرجع السابق والصفحة .

- الرأي الثاني :

ويذهب إلى أن مرتفعات كردستان وأرمينيا هي موطن الساميين الأصلي , معتمدا على كثير من الأساطير التوراتية والمأثورات القصصية التي تدور كلها حول تحديد المكان الذي رست فيه سفينة نوح بعد الطوفان , وزعم أنه جبل آرارات بإرمينيا ,وهذا الفرض ليس صحيحا , إذ لو كانت سفينة نوح قد رست في هذه المنطقة لكانت هذه لمنطقة موطنا لجميع البشرية لا للساميين وحدهم.

- الرأي الثالث :

ويقول أن إفريقيا وبلاد الحبشة هي ذلك الموطن الأصلي للساميين , وكان المستشرق " تيودور نولدكه " أشهر من قال بهذا الرأي , معتمدا على بعض التشابه بين اللغات السامية والحامية التي يذهب بعض العلماء إلى اعتبارها لغة سكان إفريقيا الحاميين , ويمكن دحض هذا الرأي بالسؤال الآتي : لم اندثرت اللغات السامية من إفريقيا وبقيت الحامية ؟

- الرأي الرابع :

فيذهب إلى أن بلاد سوريا (أرض كنعان) هي الموطن الأصلي لهؤلاء الأقوام , وبه قال المستشرق الأمريكي " كلاي" , وهو افتراض تعوزه الدقة لأنه بني على بعض المقارنات بين الأساطير والمأثورات الشعبية , وحاول أن يستنتج رأيه هذا من تلك المقارنات , وهي دراسة لا يعتمد عليها لإثبات حقائق علمية , خاصة إذا كانت تلك الحقيقة تعيين وطن أصلي لأقوام عاشت في عصور سحيقة من القدم , ولا يستطيع أحد أن يعرف عنهم شيئا إلا بالاعتماد على الكشوف الأثرية والحفريات , وما يكتشف من نقوش تشير إلى بعض جوانب حياتهم أو تدل على بعض أخبارهم .

- الرأي الخامس :

ويذهب إلى القول بأن جنوب غرب جزيرة العرب (اليمن) هو الموطن الأصلي للساميين نظرا لخصب تلك المناطق ولوجود بعض الألفاظ المشتركة بين اللغتين السبئية والعبرية .

هذه هي المناطق التي دار حولها التخمين بأن أحدهما لابد هو الموطن السامي الأول , وإذا نظرنا على تلك المواقع التي افترض العلماء أن موطن الساميين لا يخرج عن واحد منها وجدناها في معظمها تقع على تخوم جزيرة العرب و مشارفها سواء من

شمالها الشرقي أو شمالها أو شمالها الغربي أو جنوبها الغربي أو غربها , وهذا يؤكد أن الساميين لابد قد خرجوا من جزيرة العرب طلبا للماء والكلأ , وقد دفعت بهجرات متتالية عمرت مناطق شاسعة من شرق البحر المتوسط ووادي النيل والساحل الغربي للبحر الأحمر حتى عدت هذه الجزيرة مصدراً هاماً للهجرات البشرية , فقد ذهب معظم المؤرخين إلى القول بأن مصادر الهجرة البشرية ثلاثة : أواسط آسيا بالنسبة لشرق آسيا , وأستراليا , وشمال أوروبا , والجزيرة العربية بالنسبة لحوض البحر المتوسط وإفريقيا ووادي النيل وجنوب إفريقيا , وأمريكا مصدر هجرتها غير محدد ومعروف .... فليس لنا بد من أن نتمثل ما يذكره العلماء من أن الجزيرة العربية كانت في حقبة من الحقب مصدرا يوزع على العالم الثروة البشرية "(1) .

1) عبد الرحمن ياغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها , دار ريحاني للطباعة والنشر – بيروت ط1 ,1961م ص13

ندرك مما سبق أن العلماء والمؤرخين يكادون يجمعون على أن جزيرة العرب هي الموطن الأصلي لتلك القبائل والشعوب التي هاجرت منها متأثرة بما أصابها من جفاف وتصحر أدى إلى تعسر الحياة فيها وأوجب الرحيل عنها طلبا للماء والمرعى , وقد أطلق على هذه القبائل " القبائل السامية " بناء على ذلك الافتراض الذي يزعم أنها من نسل سام بن نوح . ولكن لم كانت هذه البلاد وطنا لسام ؟ هل أن سفينة نوح قد رست فيها ؟ أم أن ساما وذريته قد وجدوا في مكان آخر ثم هاجروا إليها؟ وإن كانوا قد هاجروا إليها , فما سبب هجرتهم ؟ ومن أين أتوا ؟ ثم إن المكان الذي سكنوه قبل هجرتهم إلى جزيرة العرب أولى بأن يسمى موطنهم الأصلي . أسئلة كثيرة تجعلنا أمام حيرة واضطراب , لكن هذه الحيرة وهذا الاضطراب يمكن تبديدهما إذا قلنا أن هذه الشعوب والقبائل شعوب وقبائل عربية وجدت في جزيرة العرب منذ فجر التاريخ ,وعاشت في هذه البلاد وشيدت فيها حضارات علمنا بعض أخبارها مما توفر من نقوش تدل على ذلك . وبعد أن بدأ التصحر يلف هذه البلاد , تحركت تلك القبائل في هجرات متتالية خارج مناطق التصحر والجفاف باحثة عن أسباب الحياة والاستقرار التي ترتبط بالماء والكلأ .

المحاضرة الخامسة

علاقة اللغة العربية باللغات السامية

بعد هذا العرض السريع لتاريخ الساميين ومحاولة توضيح حقيقة النظرية السامية , وحقيقة تلك الشعوب و الأقوام التي أطلق عليها خطأ اسم " الساميين ", يجدر بنا التحدث عن لغات هؤلاء الأقوام ومحاولة الوقوف على خصائصها ومدى تطورها وبعدها عن اللغة الأم .

خرجت تلك القبائل في موجات متتالية , اتجهت كل مجموعة منها إلى جهة معينة , حاملة معها لهجتها الخاصة بها , التي أخذت في الابتعاد التدريجي عن الأصل بسبب بعدها عن الأم , والتطور اللغوي الذي يرافق اللغات , والظروف البيئية الجديدة واحتكاكها بغيرها من اللغات , مما أسهم في تكوين صفات خاصة لهذه اللهجة أو تلك , أدت في النهاية إلى قطع أواصر الصلة بينها وبين أمها من جهة وبينها وبين أخواتها من جهة أخرى , فأخذت تستقل شيئا فشيئا إلى أن أصبحت لغة مستقلة تماما لها خصائصها وصفاتها التي تميزها عن غيرها , " فاللغات التي ظهرت لنا في العصور التاريخية في صور لغات مستقلة لم تكن إلا لهجات للغة واحدة , في الوقت الذي كان فيه الشعب الأول لا يزال أفراده يعيشون معها في منطقة واحدة "(1) .

1) فقه اللغات السامية , ص14.

ونحاول الآن أن نتتبع أقوال العلماء والمؤرخين حول هذه القضية , فقد ذكرت المصادر التي توفرت لنا أن هؤلاء الأقوام الذين رحلوا من جزيرة العرب قد احتكوا بغيرهم من الأمم التي كانت تسكن المناطق التي نزلوا بها , مما أدى إلى اكتسابهم صفات اجتماعية وخصائص لغوية أسهمت في إبعاد لهجاتهم عن اللغة الأم أكثر وأكثر , وعملت على منحها الاستقلال التام كلغات جديدة لكل منها كينونة و نظام خاص بها , وقد أطلق على تلك اللغات " اللغات السامية " , وقد أشار إلى ذلك لفنسون عند حديثه عن البابليين , فقال :" رحل هؤلاء الساميون من الجزيرة العربية , أو من ناحية سوريا إلى أرض السومريين , وغلبوهم على أمرهم , وأخضعوهم لحكمهم , ولكنهم لم يستطيعوا أن يغلبوهم في الدين والحضارة واللغة وفي كل نواحي التفكير , بل كان التغلب في هذه الجوانب للسومريين , فتأثر الفاتحون بدين المغلوبين وعمرانهم , واقتبسوا خطهم , وشوهت لغة الساميين بعد أن امتزجت بعناصر كثيرة من لغة المقهورين"(1)

1) تاريخ اللغات السامية , ص23. فقه اللغات السامية , ص16.

فتأثرت تلك اللهجة العربية التي حملها البابليون معهم بلغات السومريين , وقد أدى هذا التأثر إلى تطوير لتلك اللهجة أفقدها كثيرا من صفاتها التي ورثتها عن اللغة الأم , مما أدى إلى انفصالها انفصالا تاما لتصبح لغة جديدة مستقلة , لا يربطها بأخواتها اللهجات إلا بعض الخصائص التي لم تتمكن من التنازل عنها , مما جعل تحديد أصلها ليس سهلا, ومثل هذا يقال عن بقية اللهجات العربية التي هاجرت من الجزيرة , فقد أصابها شيء من التطور القسري نتيجة احتكاكها بلغات الشعوب التي عاشت معها , إلى جانب ما أصابها من التطور الطبيعي الذي تتعرض له كل اللغات .

ويزعم لفنسون أن الأمم السامية قد تأثرت بلغات الجزيرة العربية , كما يلاحظ أن مظاهر هذه الأمم تكاد تكون صحراوية , فعواطفها وخيالها وطرائق تفكيرها يشعرنا بروح الصحراء على حد زعمه(1) . وهذا ما يجعلنا نتساءل , أي لغات تلك التي يقصد بها لغات الجزيرة العربية ؟ هل كان يعيش في تلك الجزيرة أقوام وشعوب غير الساميين ؟ وإذا كان الجواب بنعم , فلن نسأل عن جنسهم , بل نسأل : إذا كان الساميون قد هاجروا من الجزيرة العربية هربا من الجفاف والتصحر, فلم بقيت تلك الشعوب ولم تهاجر كما فعل الساميون ؟ أم أنها لا تتأثر بالجفاف وانعدام الحياة ؟ ثم نسأل عن نوع ذلك التأثر الذي تأثرت به اللغات السامية , هل كان تأثراً صوتياً أم صرفياً أم في التراكيب أم الدلالة والمعنى , وما مقدار هذا التأثر ودرجته ؟ وما السند العلمي الذي اعتمد عليه المؤلف في إصدار رأيه هذا ؟ كل هذه أسئلة بحاجة إلى إجابات ....!! ثم لم لا تكون هذه الأقوام التي هاجرت من الجزيرة العربية قبائل عربية هاجرت ومعها لغاتها , لا قبائل سامية و معها لغاتها التي تأثرت بلغات جزيرة العرب .

1) تاريخ اللغات السامية , ص6.

ثم يذهب لفنسون إلى أن من مميزات اللغة العربية أنها تشتمل على عناصر قديمة جدا من اللغات السامية الأصلية , وهذا يدل على أن اللغة العربية كانت موجودة في مهد اللغات السامية , أو في ناحية قريبة منه , أو أن العناصر التي نزحت إلى بلاد العرب كانت من أقدم الأمم السامية(1) .

إن هذا الاستدلال الذي توصل إليه لفنسون يمكننا من استنتاج أن اللغة العربية جاورت السامية وعاشت معها في نفس الإقليم أو أنها كانت في أقاليم مجاورة , مما أدى إلى حصول احتكاك بين تلك اللغات تأثرت العربية من جرائه ببعض الخصائص السامية , ثم إن زعمه بنزوح أمم سامية إلى بلاد العرب زعم يعوزه الدقة والتحقيق أيضا , فمن أي الأقاليم نزحت تلك العناصر السامية إلى بلاد العرب ؟ ومتى كان هذا النزوح ؟ وما أسبابه ؟ ثم أين عاشت تلك الشعوب قبل هجرتها إلى بلاد العرب ؟ كل هذه التساؤلات لا نجد إجابة لها .

1) المرجع السابق , ص168.

إن هذا الغموض وعدم الوضوح الذي يطغى على ما ذهب إليه لفنسون لخير دليل على أن اللغة العربية هي اللغة التي عاشت في مهد العرب " الجزيرة العربية " وإن ما يدور حول ذلك القول من تساؤلات يدل دلالة واضحة على أن تلك اللغة التي عاشت في بلاد العرب هي لغتهم العربية , كما أن اشتمالها على عناصر قديمة جدا من العناصر السامية المزعومة يؤكد صحة ما نقول , وإلا فلم اشتملت العربية

على هذه العناصر القديمة جدا دون غيرها من بقية الساميات ؟ أليس من الجائز أن تكون العربية قد حافظت على خصائصها وصفاتها ولم تفقدها كما في تلك اللغات السامية , التي ليست في حد ذاتها سوى لهجات سامية كانت تعيش في جزيرة العربية قديما , ومع الهجرة والنزوح بدأت تلك اللهجات بفقد بعض خصائصها تدريجيا بفعل احتكاكها بغيرها من لغات الأمم , أضف إلى ذلك التطور اللغوي الذي يسهم في ابتعاد اللهجة عن أمها , كل هذا أدى إلى قطع الصلات بين هذه اللهجات المهاجرة من جهة , وبينها وبين أمها التي بقيت في الموطن الأصلي من جهة أخرى , مما أدى إلى استقلال كل لهجة منها لتصبح لغة مستقلة قائمة بذاتها كما هو شأن اللغات الأخرى " لأنه متى كثرت هذه الصفات الخاصة , بعدت اللهجة عن أخواتها , فلا تلبث أن تستقل وتصبح لغة قائمة بذاتها"(1).

1) إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية – مكتبة الأنجلو المصرية , القاهرة ,ط6-1984م , ص17.

ومما يؤكد أيضا أن هذه اللغة العربية هي لغة سامية ما ذكره لفنسون نفسه من أن هناك شبها كبيرا بين العربية والعبرية في كثير من الخصائص والتراكيب وأسماء الأعلام فقال :" وزيادة على المادة اللغوية العبرية التي تشبه العربية شبها كبيرا نجد كثيرا من أسماء الأعلام العبرية القديمة شائعة الاستعمال عند العرب في الجاهلية "(1) .

فوجود كثير من أسماء الأعلام مشتركا بين العبرية والعربية يؤكد لنا تجاور هاتين اللغتين وحياتهما معا في محيط واحد , وقد أسلفنا أن العبرانيين ساميين ولغتهم لهجة سامية , وأن أسماء الأعلام المشتركة بين العبرية والعربية هي أسماء أعلام عربية احتفظت بها العبرية باعتبارها لهجة سامية وقد ذهب الدكتور علي العناني بقوله :" إن هذا المصدر الذي تشعبت عنه سائر اللغات السامية إنما هو اللغة العربية الأولى التي نطقت بها سبأ في غابر الدهور حين عمرت اليمن وجعلت منها موطنا لها , وجعلت تبتعد هذه الساميات عن أمها السبئية بتراخي العصور وتنائي الديار واختلاط هؤلاء النازحين بمختلف الأقوام ممن جاورهم في أصقاع الأرض -

---

1) علي العناني وليون ماحرز : الأساس في الأمم السامية – شعوبها ولغاتها – مطبعة بولاق بالقاهرة , ط1, 1935م.

ويرى البعض أن اللغة العربية القديمة يمكن تقسيمها إلى قسمين , لغة فصيحة عاشت على تخوم الجزيرة مع تلك القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية وهي ما أطلق عليها خطأ اسم اللغات السامية , ولغة فصيحة أخرى عاشت داخل الجزيرة منذ عصور التاريخ الأولى . وقد أشار إلى ذلك إسماعيل العرفي بقوله :" كان للغة العربية في زمن ما قبل الإسلام نوعان من اللهجات الفصحى : لهجات

خارجية , ولهجات داخلية , أما اللهجات الخارجية فهي اللهجات التي نشأت خارج شبه الجزيرة العربية عبر أقوامها العربية النازحة منها والمستوطنة حولها , والتي يطلق عليها خطأ " اللغات السامية " كالسومرية , والبابلية , والآرامية , والكنعانية , والعبرية , والمصرية , والحبشية ,أما اللهجات الداخلية فهي اللهجات التي نشأت داخل شبه الجزيرة العربية عبر شعوبها وقبائلها المتعددة القاطنة في جميع أرجائها الشاسعة من بائدة وعاربة ومستعربة وجاهلية "(1) .

وقد ذهب ابن حزم إلى أن أصل اللغات السامية كلها لغة واحدة , وأن تلك اللغات قد انبثقت عنها على مر العصور , وأن هذا التنوع والاختلاف بين هذه الساميات ليس إلا خلاف لهجي فقط , قال :" إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير , لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها , فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان , ومن القيرواني إذا رام لهجة الأندلسي ومن الخرساني إذا رام نغمتيهما . ونحن نجد من سمع لغة أهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة , كاد أن يقول : إنها لغة غير لغة أهل قرطبة , وهكذا في كثير من البلاد , فإنه بمجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلاً لا يخفى على من تأمله "(1).

هذا العرض لآراء العلماء يخلق لدينا اقتناع تام بأن النظرية السامية تسمية واهية خالية من كل مضمون , وليس لها أية دلالة عرقية أو لغوية , إنه ينطوي قبل كل شيء على نقض للنظرية التي تنادي بمجموعة جنسية تتفق والمجموعة اللغوية السامية "(1).

إن الحديث عن لغة سامية حديث بعيد عن الواقع ولا يمت إلى الحقيقة بصلة ,إنه وهم أشبه ما يكون بالخرافة لأنه لا يقوم على سند نقلي أو دليل عقلي , إن هذه السامية المزعومة التي يتحدثون عنها لا يستطيع أي باحث أن يوضح شيئاً من صفاتها أو خصائصها , ولا أن يعرف حتى كلمة واحدة من كلماتها , فالزعم بوجود لغة سامية زعم باطل يدور حول لغة " مندثرة لا نملك منها نصوصاً مكتوبة ولا مروية في كتابات الآخرين "(2) .

وإذا حاولنا أن نقارن بين هذه اللغات التي زعم أنها لغات سامية من حيث الخصائص والصفات المشتركة بينها ومدى محافظة كل لغة منها على تلك الخصائص لوجدنا أن اللغة العربية قد تميزت على غيرها في المحافظة على تلك الخصائص والصفات التي فقدتها بقية اللغات , مما يؤكد لنا أن العربية هي لغة سامية وقد احتفظت بمعظم الصفات والمزايا التي غالباً ما تفقدها اللهجات المنبثقة عن الأم, **وأهم هذه الخصائص التي تميزت بها العربية ما يلي**

الخصائص التي تميزت بها اللغة العربية :

1- أبجدية العربية أوفى هذه الأبجديات وأكثرها قربا والتصاقا بالأبجدية الأم – السامية المزعومة – فهي تفوق غيرها في عدد الأصوات والمخارج التي تستعملها , يقول الدكتور حسن ظاظا :"ولو عرضنا على هذه الأصوات مجموعة مخارج الحروف الموجودة في كل لغة من اللغات السامية , لوجدنا أن أوفى الأبجديات , وأشدها انطباقا على مخارج السامية الأول هو أبجدية اللغة العربية الفصحى التي تحتوي على كل ما جاء هنا ماعدا السين التي بين بين والصاد الفرعيتين , وقد حدث في العربية نطقان جديدان هما الضاد والظاء "(1) .

فالسبب الذي جعل العربية دون غيرها من بقية مجموعة هذه اللغات تحتوي على كل المخارج وزيادة هو أنها لم تخسر شيئاً من هذه الأصوات و المخارج إلا ما خضع للتطور الصوتي واللغوي , أما غيرها من اللهجات المتشعبة عنها فكان لا بد لها من التغير وفقدان بعض الخصائص والبعد عن الأصل حتى يمكن استقلالها لتصبح لغة جديدة . إذن فخسارتها أمر حتمي , وبناء على ما سبق فإن مخارج الحروف البالغة ثمانية وعشرين حرفاً ستكون أكثر من أصوات أية لغة أخرى ضمن هذه المجموعة " فهي تنقص عن ذلك كثيراً في العبرية والآرامية والحبشية والبابلية والأشورية . مع ملاحظة أننا نتكلم هنا عن المخارج الأصلية للحروف التي تؤخذ في الاعتبار عند المقارنة اللغوية والبحث عن أصول الألفاظ "(1) .

2- إلى جانب محافظة العربية على المخارج , حافظت كذلك على الأصوات بين الأسنانية وهما صوت الذال وصوت الثاء , اللذان فقدا من اللغات الأخريات , ليحل صوت الزاي محل الذال في بعض اللغات , ويحل الدال محله في البعض الآخر , أما صوت الثاء فأصبح ينطق في بعض اللغات شينا وفي البعض الآخر سينا , كما ينطق تاء في بعض آخر , وقد أشار إلى هذا الدكتور حسن ظاظا عند حديثه عن صوتي الثاء والذال فقال : "وهما شائعان في العربية , والمقارنة تثبت أنها حافظت عليهما من اللغة السامية الأم , بينما أضاعتهما اللغات السامية الأخرى , فكلمة " أذن " في اللغة العربية , تأتي في البابلية الآشورية وفي العبرية والحبشية بالزاي , بينما تأتي بالدال في الآرامية والسريانية , وفي عربية اليمن القديمة ورد " أذن " بالذال كما في العربية الفصحى . وأما حرف الثاء فإنه يتأرجح في غير العربية من اللغات السامية بين الشين أو السين أو التاء , فالعبرية تنطق " شورو " وفي الآرامية والسريانية " تورا " , ولم ترد الثاء إلا في الفينيقية إلى جانب العربية "(1) .

وهذا التغير في هذه الأصوات نجده الآن في لهجاتنا المحلية , فصوت الذال ينطق زايا في كثير من الكلمات , فكلمة " حذاء " مثلا تنطق "حزاء " فلا نسمع ذالا بل

زايا , كما أن هذا الصوت قد نسمعه في بعض الكلمات دالا كما في نطق كلمة " دهب " بدلا من " ذهب " . وكذلك الثاء فإنا نسمعها سينا في بعض الكلمات كما في " ثلاثة " التي نسمعها " سلاسة " , وقد نسمعها تاء كما في " تعلب " بدلا من " ثعلب ". والسبب في تغير نطق هذين الصوتين هو تغير مواضع نطقهما , وهو ما يعزي إلى التطور الصوتي الذي لا تسلم منه لغة , وما يحصل لهذين الصوتين الآن في لهجاتنا المعاصرة هو عينه الذي حصل مع تلك اللهجات العربية القديمة التي أطلق عليها اللغات السامية.

3- وإذا حاولنا تقصي بعض الصوائت القصيرة (الحركات) في هذه المجموعة من اللهجات العربية القديمة (السامية) أدركنا أن تلك الحركات كلها قد أصابتها تغيرات مطردة أدت إلى تغير صفاتها وخصائصها , وهذا ما لا نجده في العربية الأم التي احتفظت بتلك الحركات كما هي منذ نشأتها باستثناء بعض التغيرات التي يمكن أن نقول عنها أنها شاذة وغير مطردة , السبب في ذلك التغير ما طرأ عليها من بعض التطورات الصوتية التي لا تسلم منها أية لغة , " وأكثر تغيرات الحروف الصائتة الواقعة في اللغة العربية , غير المذكورة إلى الآن اتفاقية , وليس فيها إلا القليل من المطردة , فبقيت الحركات السامية على العموم سالمة على حالها في اللغة العربية "(1) .

4- ومن الخصائص اللغوية التي حافظت العربية عليها ظاهرة الإعراب , الذي هو من أقدم السمات اللغوية للغة السامية المزعومة , يقول برجشتراسر :" الإعراب سامي الأصل تشترك فيه اللغة الاكادية , وبعض الحبشية , ونجد آثارا منه في غيرها أيضا "(1). وقد فقدت هذه الظاهرة من معظم المجموعة اللغوية التي زعم أنها الساميات , ولم يظهر واضحا جليا إلا في العربية فقط , يقول يوهان فك :" لقد احتفظت العربية الفصحى في ظاهرة التصرف الإعرابي بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية باستثناء البابلية القديمة قبل عصر نموها الأدبي "(2)

5- وهذا يجعل اللغة العربية تنفرد بعدد كبير من الألفاظ لا توجد في غيرها من تلك المجموعة السامية , وهذا ما دفع برجشتراسر إلى القول :" فأما أصل هذه الكلمات الكثيرة الخاصة بالعربية , فقد مال بعض العلماء إلى أنها أو أكثرها سامية أصلية أيضا , وسقطت من كل اللغات السامية غير العربية , وهذا بعيد عن الاحتمال في الغاية , ولا يجوز افتراضه إلا على فرض كون العربية أقرب إلى اللغة السامية الأم من أخواتها , وحتى كونها هي اللغة الأصلية بعينها "(1)

6- كما تتميز العربية عن بقية الساميات بخصائص فعلية كثيرة , إذ أن الفعل فيها يستخدم بطرق متعددة وصيغ مختلفة , لا نجدها في غيرها من اللغات , فهي تقوم

بتحديد معنى الفعل وتخصيصه داخل السياق باستخدام الأدوات المساعدة الكثيرة والمختلفة الدلالات والأغراض , كل هذا أسهم في تنويع معاني الأفعال , فعندما نقول مثلا " فعل " و" قد فعل " و " قد يفعل " و " سيفعل " و " سوف يفعل " فإن كل صيغة من هذه الصيغ تدل على معنى مغاير لما يدل عليه غيرها من الصيغ الأخرى , "وهذا أكبر دلالة على سجية اللغة العربية وطبيعتها , فهي أبدا تؤثر المعين المحدد على المبهم المطلق , وتميل إلى التفريق والتخصيص, فاللغة العربية أكمل اللغات السامية وأتمها في هذا الباب , أي باب معاني الفعل الوقتية وغيرها (1)" .

7- إضافة إلى ما سبق فقد حافظت العربية على عمل الفعل من رفع ونصب , ووافقتها في هذا بعض اللغات السامية , وقد انفردت بالمحافظة على عمل الأسماء التي تعمل عمل الفعل , فوضعت لها أحكاما دقيقة وقواعد ثابتة لا نجد لها أثرا في بقية الساميات(1) .

ويقوم بناء الجملة في العربية على عملية الإسناد , ولابد من مراعاة الترتيب بين المسند والمسند إليه , وقد اختلفت اللغات في ترتيب الألفاظ داخل الجمل , فمنها ما قد عين موقعا محددا لكل لفظة داخل الجملة , لا يمكنها مغادرته إلا في بعض الحالات النادرة , ومن اللغات ما تتحرك كلماتها داخل الجملة كما تشاء دون تأثير على المعنى , أما في العربية فإن التقديم والتأخير بين مفردات الجملة الواحدة ممكن , ولكن وفق أطر ومعايير معينة , وشروط لابد من مراعاتها , فقد وضعت لتقديم الخبر في الجملة الاسمية قواعد أثبت مما يوجد في سائر اللغات السامية ... وهي أشد اللغات السامية تقييدا لترتيب الكلمات(1) .

المحاضرة السادسة

العربية البائدة والعربية الباقية

منذ عصور سحيقة في التاريخ انتشرت اللغة العربية في كل مناطق الجزيرة العربية وأنحائها المختلفة وتفرعت بفعل عوامل التطور اللغوي إلى لهجات متباينة لكل قبيلة لجهتها الخاصة بها ، أدى ذلك إلى أنْ قسم المستشرقون هذه اللهجات إلى قسمين : لهجات الشمال ولهجات الجنوب . وقد أشار لفنسون إلى ذلك بقوله " وقد وجدنا العلماء من العرب والإفرنج يقسمون اللهجات العربية إلى قسمين يشتمل القسم الأول على جميع اللهجات العربية في شمال الجزيرة ، والآخر يشمل اللهجات التي في الجنوب [1] "

إلا أنّ هذا التقسيم لم يَرُق للفنسون فاعترض عليه ورأى أنه لا يعتمد على أسس علمية سليمة وإنما يعتمد على أسس جغرافية وتاريخية غير دقيقة ، كما يرى أن أصحاب هذا التقسيم لم يقدموا تبريراً معقولاً لهذه التسمية ، فيقول : " إنهم لم يشرحوا لنا شرحاً وافياً السبب الذي حملهم على تقسيمهم هذا ولم يبينوا له علة ... إنه ليس تقسيماً جغرافياً صحيحاً ولا تاريخياً دقيقاً فليست هناك حدود واضحة تفصل شمال الجزيرة عن الجنوب ، وتبين لنا من أين وإلى أين كانت منطقة انتشار القسم الجنوبي من اللغة العربية ، ومن أين وإلى أين سادت اللهجات الشمالية من العربية [1] " ثم يقترح أن تقسم هذه اللهجات العربية إلى عربية بائدة وأخرى باقية ، فيقول : " والذي نراه صواباً أن تقسم اللهجات العربية إلى بائدة وباقية [2] " .

ومهما يكن من أمر فإن أي تقسيم سواء كان جغرافياً أم تاريخياً أم غير ذلك سيقودنا إلى القول بأن اللهجات العربية القديمة قد انقسمت إلى عربية بائدة تضم تلك اللهجات التي عثر عليها في جنوب بلاد العرب ، وبعضاً من لهجات الشمال ، حيث سادت هذه اللهجات في فترات تاريخية مختلفة ، ثم أتت عليها يد الدهر فأبادتها . وعربية باقية ، وهي التي سادت في العصور الجاهلية ، ونظمت بها القصائد ونزل بها القرآن الكريم ، وهي التي تستخدمها في كتابتنا وبها إبداعاتنا . وبناءً على ما سبق سنقوم بدراسة اللهجات العربية على هذا الأساس " العربية البائدة والعربية الباقية "

1 -العربية البائدة أو " عربية النقوش " :

يطلق هذا الاسم على لهجات لمجموعة من القبائل العربية التي عاشت في منطقة العلا شمال الحجاز ، على مقربة من الآراميين وهي التي ظهر على آثارها الطابع الآرامي ولشدة احتكاكها باللغات الآرامية ، وبعدها عن المراكز العربية الأصيلة بنجد والحجاز صبغ من يتكلمون بها بالحضارة الآرامية والنبطية ، واستعملوا حرفاً قريباً من الخط المسند [1] . وأرخوا نفوسهم بحرب النبط ، وحرب الفرس والروم ، وتاريخ بصرى [2] . وأشهر هذه اللهجات الثمودية والصفوية واللحيانية .) سمي بذلك لأن حروفه تستند إلى أعمدة ، وتمثل بذلك طرازهم المعماري الذي كان يرتكز على الأعمدة في تشييد القصور والمعابد والسدود وأبواب المدن والأسوار ،

أ- الثمودية :

وهي اللهجة التي تنسب إلى قبائل ثمود التي ورد ذكرها وذكر مساكنها في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، وقد عثر على نقوش هذه اللهجة في المناطق التي يعتقد العرب أنها كانت مساكن لقبائل ثمود ، وتاريخ هذه النقوش يعود إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد ، وقد زاد عدد هذه النقوش على ألف وسبعمائة نقش عثر عليها

فيما بين الحجاز ونجد وفي شبه جزيرة سيناء وبالقرب من دمشق ، وقد كتبت بخط مشتق من الخط المسند يتجه من أعلى إلى أسفل ولا يثبت على حال واحدة .

ب- الصفوية : وهي اللهجة المنسوبة إلى منطقة الصفا مع أن نقوشها قد عثر عليها في مناطق مختلفة في الحرة الواقعة بين ثلول الصفا وجبل الدروز ، ويزيد عددها على ألفي نقش . ويرجع تاريخها إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد ، وقد حلّ رموزها واكتشف حروفها المستشرق الألماني إنوليتمان Enno Litmann ، واتضح له أن خط هذه النقوش قريب من الخط الثمودي ، وقد يكون " مشتقاً منه إلا أنه شديد التغير والاختلاف فما يكاد يستقر على حال واحدة ، فهو تارة يقرأ من الشمال إلى اليمين ، وتارة أخرى من اليمين إلى الشمال . وهذا التشابه بين الخطين الثمودي والصفوي جعل بعض العلماء يطلقون على الخط القديم الذي يبدو فيه أثر النوعين كليهما اسم " الخط الثمودي الصفوي[1] " . وهذا الشبه الشديد بين الخطين ، وعدم نسبة اللهجة الصفوية إلى قبائل بعينها ، بل نسبتها إلى المنطقة التي وجدت فيها ، منطقة الصفا ، وهي نفس المنطقة التي عثر فيها على النقوش الثمودية ، إضافة إلى أن " بعض الدارسين يقسمون تطور الخط الصفوي إلى مرحلتين اثنتين ويعتبرون أن المرحلة الأولى هي امتداد للخط الثمودي ، في حين يرون أن الخط الصفوي الخالص لا يظهر إلا في المرحلة الثانية [2] " كل هذا يجعلنا نقول إن اللهجة الصفوية قد تكون إحدى لهجات الثمودية تفرعت عنها نتيجة للتطور اللغوي الذي يصيب اللغات ، وأصبحت لها ملامح خاصة بها ، يتجلى ذلك في خطها الذي كان في المرحلة الأولى من مراحله شديد الشبه كثير الالتصاق بالخط الثمودي ، ثم تطور تدريجياً وابتعد عن الخط الثمودي لتبدأ المرحلة الثانية من حياته ، وليصبح خطاً مستقلاً واضح المعالم .

ج- اللحيانية :

تنسب هذه اللهجة إلى قبائل لحيان التي يرجح أنها كانت تسكن في شمال الحجاز ، وقد اختلف العلماء في أصل هذه القبائل اختلافاً كبيراً . وقد عثر في هذه المنطقة على نقوش كثيرة لم يثبت بصورة قاطعة تاريخها ، وأغلب الاحتمالات أنه يعود إلى ما بين سنة 400 وسنة 200 قبل الميلاد ، وكتبت بخط مشتق من الخط المسند ويسير مستعرضاً من اليمين إلى الشمال ، ومعظم هذه النقوش يتحدث عن أسماء ملوك لحيان وألقابهم وتعدادهم وإلى غير ذلك .

2- العربية الباقية :

هي التي تنصرف إليها كلمة " العربية " عن إطلاقها ، وهي التي لا تزال مستخدمة في الكتابة والتأليف في كل أرجاء الوطن العربي ، وقد تكونت من احتكاك اللهجات العربية بعضها ببعض وتخلصت من الخصائص اللهجية لكل من

تلك اللهجات ، وقد أشار لفنسون إلى ذلك بقوله " اللغة العربية الباقية هي مزيج من لهجات عربية بعضها من شمال الجزيرة وهو الأغلب ، وبعضها من جنوب البلاد اختلطت كلها بعضها ببعض حتى صارت لغة واحدة [1] " .

وقد أطلق عليها اسم اللغة المشتركة ، فهي لغة موحدة منسجمة في كل جوانبها ، وتخلو من الخصائص اللهجية المختلفة ، وهي لغة منتقاة من بين كل اللهجات العربية ، وقد أنشأت هذه اللغة المشتركة ، ونمت وازدهرت قبل الإسلام " وأقدم ما نستطيع تصوره في شأن شبه الجزيرة العربية ، هو أن نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة ، انغزل بعضها عن بعض ، واستقل كل منها بصفات خاصة ، ثم كانت تلك الظروف التي هيأت البيئة معينة ، في شبه الجزيرة فرصة ظهور لهجتها ثم ازدهارها ، والتغلب على اللهجات الأخرى (2) " .

وقد تكونت هذه اللغة المشتركة جراء احتكاك العرب بعضهم ببعض في كثير من مجالات الحياة . فهناك احتكاك في النشاط التجاري المتمثل في الأسواق ، فقد كان للعرب في جاهليتهم عدد كبير من الأسواق يربو على ستة وعشرين سوقاً أشهرها : عكاظ ، والمجنة ، وذو المجاز ، ودومة الجندل ، وخيبر ، والشحر . وهناك احتكاك عن طريق الحروب ، كحرب الفجار ، وحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء وغيرها ، إلى جانب احتكاكهم من خلال الأحلاف والعهود والمناظرات الأدبية والمساجلات الشعرية ، وغيرها ، فقد كان سوق عكاظ " مجمعاً أدبياً لغوياً رسمياً ، له محكمون تضرب عليهم القباب فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم ، فما استجادوه فهو الجيد ، وما بهرجوه فهو الزائف [1]. وإلى جانب هذه العربية المشتركة كانت هناك لهجات متعددة " ففي كل بلاد العالم لا بد للغة المشتركة من مكان تتميز فيه ، وأسباب وظروف معينة تساعد على تكوينها وازدهارها ، وحياتها بجانب اللهجات الأخرى [2] . وقد اختلفت هذه اللهجات فيما بينها في كثير من مظاهرها الصوتية والدلالية وغيرها ، وكان العربي يتكلم مع أهله وعشيرته بلهجتهم الخاصة ، وإذا أراد أن يربح خطبة أو أن ينظم شعراً لجأ إلى تلك اللغة المشتركة التي يفهمها كل العرب والخالية من كل الصفات اللهجية الخاصة ، قال إبراهيم أنيس : " ونحن حين نستعرض شعراء ربيعة تلك القبيلة التي عُرفت بالكشكشة لا نكاد نلمح أثراً لتلك الصفة في شعر شعرائها ، ورواية شعر فيه كشكشة بشعر خال منها تأباه بعض الأوزان الشعرية ، بل حين نرجع إلى ديوان الهذليين لنستشف منه الصفات التي عرفت بها لهجة هذيل كالفحفحة أو تسهيل الهمزة أو الأستنطاء ، لا نكاد نعثر على أثر له في أشعارهم [3] "

ولولا أن هذه اللغة المشتركة لم تكن في متناول جميع العرب ، وأنها أرقى مستوى من بقية اللهجات ، لما اعتبرت مقياس البلاغة والفصاحة ، ولما أمكن الحكم على كلام بأنه أفصح من غيره ، وعلى شاعر بأنه أفضل من غيره .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : كيف تكونت هذه العربية المشتركة ؟ بداية يجب الإشارة إلى أن اللهجات العربية القديمة التي كانت موجودة في جزيرة العرب لا بد أن تكون قد تشعبت عن لغة واحدة ومعلوم أن اللغة تزرع بذور فنائها في رحمها ، لأنها تتطور فينتج عن تطورها بعض الاختلافات، وتنمو هذه الاختلافات تدريجياً، ويستعمل كل مجموعة منها مجموعة من الناس، وتعرف حينئذٍ باللهجة التي تنمو وتبتعد تدريجياً عن اللغة الأم التي يبدأ الضعف يدب في أرجائها وتبدأ تفقد من يتكلمون بها ولا تلبث أن تموت وتندثر، وتخلفها تلك اللهجات التي تصبح لغات مستقلة لكل منها خصائصها وقوانينها .

تجلّت العناية الإلهية في توحيد اللهجات العربية في لغة مشتركة تميزت عن بقية اللهجات بالبلاغة والفصاحة والبيان ، وهذا ما أوحى بأن هذه اللغة المشتركة سيكون لها شأن عظيم تجلى ذلك في نزول القرآن الكريم بها.

وكان لعلمائنا القدماء والمحدثين آراء متباينة حول نشأة اللغة المشتركة تمثلت فيما يلي :

الرأي الأول : يؤكد أن لهجة قريش أفصح اللهجات العربية ، وأنها استطاعت التغلب على سائر اللهجات العربية التي كانت في شبه الجزيرة العربية وبه قال كثير من العلماء والباحثين قديماً وحديثاً ، فابن جنّي يربأ بلهجة قريش عن أن يكون لها صفات لهجية مذمومة ، فيقول : " ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة [1] تميم ، وكشكشة [2] ربيعة ، وكسكسة [3] هوازن ، وتضجع [4] قيس ، وعجرفية [5] ضبة وتلتلة [6] بهراء" [7]

ويرى ابن فارس أن قريشاً أفصح لأن الله سبحانه اختار منهم رسوله الأمين ، فيقول : " أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله – جل ثناؤه – اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم [8] " .

ونجد صدى هذا الحديث لدى بعض الباحثين المعاصرين ، فيرى علي عبد الواحد وافي أن لهجة قريش تغلبت على سائر اللهجات العربية وانتصرت عليها بعد صراع مرير معها ، يقول : " اشتبكت اللهجات العربية بعضها مع بعض في صراع لغوي كتب النصر فيه للهجة قريش فطغت على جميع اللهجات الأخرى في المحادثة ، واستأثرت بميادين الأدب وشعرها وخطابتها ونثرها في مختلف القبائل العربية فأصبح العربي أيّاً كانت قبيلته يؤلف شعره وخطابته ونثره الأدبي بلهجة قريش [1] " . وهذا كلام غير دقيق ومجافٍ للحقيقة العلمية ، فليس من السهولة بمكان أن تسيطر لهجة مهما كانت سطوتها وجبروت أهلها على غيرها ، كما لا

يمكن أن يقبل أهل اللهجات المغلوبة هذا الأمر ، خاصة إذا كان هؤلاء الأقوام يعيشون بالعقلية القبلية التي تأنف الخضوع للغير .

أما صبحي الصالح فيرى أن لهجة قريش هي العربية الفصحى ، مع أنه يعترف أنها لم تكن في جميع حالاتها أفصح من لهجة تميم ، فيقول : " وسنرى أن لهجة قريش التي جعلتها العوامل السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية اللغة العربية الفصحى، لم تكن في جميع الحالات أقوى قياساً من لهجة تميم ، بل كثير ما ثقفوها في بغض ذلك تميم ، ولكنها - أي القرشية – باعتراف من جميع القبائل وبطوعية واختار من مختلف لهجاتها ، كانت أغزرها مادة ، وأرقها أسلوباً ، وأغناها ثروة ، وأقدرها على التعبير الجميل الدقيق الأنيق في أفانين القول المختلفة [3] " .

الرأي الثاني : جاء على لسان طه حسين الذي يرى أن لهجة قريش بما توفر من سلطان سياسي وديني واقتصادي حريّ بها أن تسود غيرها من اللهجات إلاّ أنه لا يعلم متى تمت لها هذه السيادة ، قبل الإسلام أم بعده ، فيقول : " فالمسألة إذاً هي أن نعلم أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ أما نحن فنتوسط ونقول إنها سادت قبيل الإسلام حين عَظُم شأن قريش ، وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية ... فقد اجتمع لقريش سلطان سياسي واقتصادي وديني. وأخلق بمن يجتمع له هذا السلطان أن يفرض لغته على من حوله من أهل البادية ... لغة قريش إذاً هي اللغة العربية الفصحى فرضت على قبائل الحجاز فرضاً لا يعتمد على السيف ، وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية ، وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب ، كما كان الحج وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش [1] " .

الرأي الثالث : جاء على لسان عبده الراجحي الذي رأى أن الآراء التي ذهبت إلى أن لغة قريش هي العربية المشتركة إنما جاء لتمجيد لغة قبيلة الرسول صلى الله عليه وسلم . قال : " إن هذه الآراء التي تذهب إلى أن لهجة قريش هي اللغة المشتركة الفصحى لا تقوم على أساس لغوي علمي صحيح ، لأننا لا نستطيع أن نحكم على لغة من اللغات من أقوال الرواة عنها ، خاصة وأن هذه الأقوال ينبغي أن نأخذها بقدر كبير من الحيطة والحذر ، لأنها – كما نحسب – لم تصدر إلاّ عن تمجيد لقبيلة الرسول صلى الله عليه وسلم [1] " . فهذه الروايات التي تزعم أن لغة قريش هي اللغة المشتركة لا يمكن الاعتماد عليها ، فليس لها سند علمي يمكن من خلاله الحكم على ما جاءت به . " وقد كنا نستطيع أن نحكم هذا الحكم لو توافرت لدينا نصوص لغوية من لهجات القبائل تتميز بها أمامنا لهجة قريش وغيرها بحيث يُظهر لنا تطور هذه النصوص أن لهجة قريش استطاعت أن تسود غيرها من

اللهجات ، وأن تفرض نفسها لغة نموذجية مشتركة يصطنعها الشعراء في شعرهم والخطباء في خطبهم [2] " وهذا يعني أن لغة قريش ليست اللغة العربية المشتركة ، يقول حاتم الضامن : " إن اللغة المشتركة هي ليست لغة قريش وحدها ، أو تميم أو غيرها من قبائل العرب ، بل هي مزيج من كل هذا تكونت له شخصيته وكيانه وأصبح مستقلاً عن اللهجات [3] "وبهذا نؤكد أن العربية المشتركة لم تكن لهجة قريش فقط ، بل هي مزيج اشتركت في إنتاجه معظم لهجات العرب " فهذه اللغة المشتركة لا تنسى إلى قبيلة بذاتها ، ولكنها تنسب إلى العرب جميعاً ما دامت النصوص الشعرية والنثرية لا تكاد تختلف فيما بينها ، وهذه النصوص – كما تعلم – ليست قرشية أو تميمية أو هذلية فقط ، بل هي من قبائل مختلفة مما يدل على أن هذه اللغة المشتركة هي التي كان الأدباء يصطنعونها في فنهم القولي [4] "

ومهما يكن من أمر فإن لغة قريش ليست اللغة المشتركة ، لأنها لم تكن أفصح اللهجات العربية ، وقد اعترف بذلك القرشيون أنفسهم وأكدوا ذلك بإرسال أبنائهم إلى البادية لتعلم الفصاحة ، فلو وجدوا في أنفسهم فصاحة أكثر من فصاحة " البادية " أرسلوا أبنائهم لهذا الغرض . كما أن نتائج الدراسات اللغوية تميل إلى ما يلي :

1- نزل القرآن بهذه اللغة المشتركة المصطفاة من معظم اللهجات العربية حتى يكون مفهوماً لدى كل العرب .

2- كانت في جزيرة العرب لهجات متعددة تختلف في كثير من الجوانب اللغوية ، تختلف في الأصوات ، وفي التركيب وفي الدلالة وغيرها ، وإلى جانب هذه اللهجات وجدت اللغة المشتركة التي كان يستخدمها الخاصة في معاملاتهم ، والشعراء في نظم قصائدهم والخطباء في خطبهم ، وكانت مستعصية على عامة الناس .

3- في القرآن الكريم أشياء كثيرة من لهجات القبائل المختلفة ، حتى ذهب أحد الباحثين إلى القول إن في القرآن خمسين لغة (1) " .

4- لهجة قريش هي الأكثر وروداً في القرآن الكريم ، يؤكد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم .

المحاضرة السابعة

ألقاب اللهجات العربية

عرفنا فيما مضى أن اللغة العربية الفصحى , ليست لغة قريش , ولا لغة غيرها من القبائل العربية , وإنما هي اختيار لاشعوري من لغة هؤلاء وهؤلاء ,حدث من احتكاك كثير من أفراد هذه القبائل , في مواسم الحج والتجارة , والأسواق الأدبية المختلفة , فنتج عن هذا الاحتكاك الكبير بين القبائل , ذلك الكيان اللغوي الذي عرفناه باسم اللغة الفصحى , وهي اللغة المشتركة بين أدباء هذه القبائل جميعاً ,ينظمون بها شعرهم , ويعبرون بها عما يجيش في صدرهم في ساعات الجد, كمواقف الخطابة مثلاً .ومع كل هذا , يمكننا القول بأن لهجة قريش , تضرب في مميزات هذه اللغة الفصحى بسهم وافر , إذ لم يرو لنا عن هذه اللهجة شيء يخالف ما نعرفه عن العربية الفصحى , سوى أنها لم تكن تهمز في كلامها . وقد اختارت الفصحى ظاهرة الهمز من لهجة تميم .ولذلك لا نعجب , إذا رأينا بعض اللغويين فيقول ابن فارس مثلاً : ' يجعل العربية الفصحى مرادفة للهجة قريش 'العرب أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم , والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم , أن قريشاً أفصح العرب ألسنة , وأصفاهم لغة , وذلك أن الله جل ثناؤه , اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة وولاته , فكانت وفود العرب , من حجاجها وغيرهم . يفدون إلى مكة للحج , ويتحاكمون إلى قريش لأي أمورهم ... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها , وإذا أتتهم الوفود من العرب , تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم , وأصفى كلامهم , فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات, فصاروا بذلك أفصح العرب .

وأغلب الظن أن العرب لم تكن تعرف هذه الألقاب للهجاتها في الجاهلية , وان المسؤل عن تلقيب كل لهجة بلقب معين , هو رجل من "جرم" لم تذكر المصدر اسمه , وكان ذلك في مجلس من مجالس معاوية بن أبي سفيان . وأقدم أخبار هذا المجلس , يرويه الجاحظ فيقول : "وقال معاوية يوماً :من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات , وتيامنوا عن كسكسة بكر , ليست لهم غمغمة قضاعة ,ولا طمطمانية حمير .قال : من هم ؟ قال : ممن أنت ؟ قال : من جرم ز قال : اجلس.

وتختلف المصادر بعد ذلك في رواية الخبر , من حيث عدد القبائل التي ذكرت فيه , والألقاب التي نسبت إليها , فهذا ابن عبد ربه مثلاً , يروي عن الأصمعي أنه قال :" قال معاوية : أي الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط : يا أمير المؤمنين , قوم ارتفعوا عن رتة العراق , وتياسروا عن كسكسة بكر , وتيامنوا عن شنئنة تغلب , ليست فيهم غمغمة قضاعة , ولا طمطمانية حمير , قال : من هم ؟ قال :

قومك يا أمير المؤمنين قريش . قال :صدقت , فمن أنت؟ قال : من جرم .قال الأصمعي :جرم فصحى العرب .

كما يروي الحريري عن الأصمعي " أن معاوية قال ذات يوم لجلسائه : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السماط فقال : قوم تباعدوا عن عنعنة تميم , وتلتلة بهراء , وكشكشة ربيعة , وكسكسة بكر , ليس فيهم غمغمة قضاعة , ولا طمطمانية حمير , فقال :من أولئك ؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين "

كما يقول أبو الحجاج البلوى :" ويروى أن معاوية قال يوماً : أي الناس أفصح ؟ فقام رجل من السماط , فقال :أمير المؤمنين , قوم ارتفعوا عن فراتية العراق , وتياسروا عن كسكسة بكر , وتيامنوا عن عنعنة تميم وليس فيهم غمغمة قضاعة ,ولا طمطمانية حمير . قال :من هم؟ قال : قومك قريش ".

ومع اختلاف هذه الروايات السابقة , في عدد القبائل والألقاب , ونسبة هذه الألقاب

ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا المبرد , الذي روى في هذا الخبر أن جرما –قبيلة الرجل المتحدث أمام معاوية – هي الفصحى , ولم يرد في روايته ذكر لقريش البتة , فيقول :" وحدثني من لا أحصي من أصحابنا عن الأصمعي عن شعبة عن قتادة , قال : قال لي معاوية يوما : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السماط , فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق , وتيامنوا عن كشكشة تميم , وتياسروا عن كسكسة بكر , ليس فيهم غمغمة قضاعة , ولا طمطمانية حمير , فقال له معاوية : من أولئك ؟ فقال : قومي يا أمير المؤمنين , فقال له معاوية : من أنت؟ قال : أنا رجل من جرم . قال الأصمعي : وجرم من فصحاء الناس .

ولكن من يدري ؟ فلعلها رواية واحدة , أصابها التحريف في قوله : " قومي يا أمير المؤمنين " بدلاً من :"قومك يا أمير المؤمنين "!!

وقد روى ثعلب هذا الخبر , ملخصا إياه مما دار في مجلس معاوية –فيما يبدو – فقال: " ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم , (وتلتلة بهراء), وكشكشة ربيعة , وكسكسة هوازن , وتضجع قيس , وعجرفية ضبة "

1- الاستنطاء

روي هذا اللقب عن لهجة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار , كما روي أنه لغة أهل اليمن , وهو عبارة عن جعل العين الساكنة نونا , إذا جاورت الطاء , هكذا تقول المصادر , غير أنها لم تمثل له إلا بمثال واحد , وهو : "أنطي " بدلاً من "أعطى ".

ومن شواهده : القراءة القرآنية :" إنا أنطيناك الكوثر " وحديث الدعاء :" لا مانع لما أنطيت , ولا منطي لما منعت ", وحديث :"اليد المنطية خير من اليد السفلى " ومنه قول الأعشى :

جيادك في القيظ في نعمة تصان الجلال وتنطى الشعيرا

والتوزيع الجغرافي لمواطن النطق بالصيغة (أنطى) قديما وحديثا , يبين أنها كانت توجد على طرق القوافل من الجنوب إلى الشمال , ومن ثم فإن احتمال انتقال هذه الصيغة من الجنوب , أي من بلاد اليمن , على طول طريق رحلتي الشتاء والصيف , احتمال مقبول .

والحقيقة أن الاستنطاء ليس ظاهرة عامة , عند القبائل التي روى عنها , في كل عين ساكنة تجاور طاء, كما تقول المصادر العربية , وإنما هو خاص بكلمة "أعطى" وحدها .

وتفسير هذه الظاهرة بأن العين قلبت نونا تفسير لا تؤيده الدراسات الصوتية الحديثة , لأن العين تختلف اختلافا كبيرا من الناحية الصوتية عن النون ,ومن المعروف أن الصوت لا يقلب إلى صوت آخر , إلا إذا كان بين الصوتين , نوع من القرابة الصوتية في المخرج والصفة . وقد فطن إلى هذا اللغويون العرب أنفسهم , يقول ابن جنى :"القلب في الحروف , إنما هو تقارب منها , وذلك الدال والطاء والتاء والذال والظاء والثاء والهاء والهمزة والميم والنون , وغير ذلك مما تدانت مخارجه , فاما الحاء فبعيدة عن الثاء وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداهما إلى أختها.

ولولا هذا البعد الصوتي , لحدث الإبدال عند القبائل التي روي عنها , الاستنطاء , في كلمات كثيرة وقعت فيها العين ساكنة قبل الطاء , مثل :"يعطب " و"يعطس " و"يعطش" و"يعطف" و"يعطل" و"يعطن" و"يعطو" وغير ذلك من الأمثلة .

ولكن المصادر العربية لم ترو لنا إلا كلمة : "أنطى " في "أعطى " وهو ما نعرفه اليوم في اللهجات الحديثة , كما سبق أن عرفنا , فما السر الحقيقي إذن في ورود هذه الكلمة عن بعض القبائل العربية ؟

يفسر الدكتور إبراهيم السامرائي هذه الظاهرة , تفسيرا عربيا خالصا , فيقول : "وملاك الأمر في هذه النون , أنها لم تكن مقابلة للعين في أعطى , وإنما جاءت من أن الفعل كان (آتى) بمعنى (أعطى) , ثم ضعف الفعل فصار (أتى)بتشديد التاء , ومعلوم أن فك الإدغام في العربية وفي غيرها من اللغات السامية , يقتضي إبدال النون بأحد الحرفين المتجانسين , كما نقول في العربية (جندل) وهي من (جدل), بتشديد الدال , وهذا كثير معروف .

2- التلتلة

هذه الظاهرة عبارة عن كسر حرف المضارعة , فيقال :أنا إعلم , ونحن نعلم , وأنت تعلم , وهو يعلم , وما إلى ذلك . وهي لقب لقبيلة "بهراء" كما يذكر كثير من المصادر العربية , وعزاها صاحب لسان العرب , إلى كثير من القبائل العربية , فقال : " وتعلم بالكسر لغة قيس , وتميم , وأسد , وربيعة , وعامة العرب ,وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن , وأزد السراة ,وبعض هذيل , فيقولون : تعلم , والقرآن عليها , وزعم الأخفش أم كل من ورد علينا من الأعراب , لم يقل إلا تعلم , بالكسر , ويقول الفراء إن النون في نستعين مفتوحة في لغة قريش , وأسد وغيرهم بكسرها .

وقد جاءت هذه الظاهرة , في رجز لحكيم بن معية الربعي , وهو :

لو قلت ما في قومها لم تيثم يفضلها في حسب وميسم

أي "لم تأثم" التي صار بعد كسر حرف المضارعة :"تئثم", وخففت الهمزة فصارت :"تيثم", كما في البيت .

وقد روى ابن جنى بيتاً عن أعرابي من بني عقيل كسر فيه الهمزة في الفعل :"أخاف ", فقال :وأنشدني عقيلي فصيح لنفسه:

فقومي هم تميم يا ماري وجوثة ما إخاف لهم كثارا

فكسر الهمزة من :"إخاف ".

كما روي ابن الأنباري بيتاً للمرار , كسر فيه التاء من "تعلم " في قوله :

قد تعلم الخيل أياما تطاعنها من أي شنشنة أنت ابن منظور

وقال بعده :" قال أبو بكر : قال أبي أنشدنيه أبو جعفر : قد تعلم بكسر التاء , وقال : هي لغة بني أسد , يقولون : يعلم وإعلم ونعلم , ومثله كثير ".

وهذه الظاهرة سامية قديمة , توجد في العبرية والسريانية والحبشية والفتح في أحرف المضارعة حادث – في رأيي – في العربية القديمة , بدليل عدم وجوده في اللغات السامية الأخرى , وبدليل ما بقي من الكسر في بعض اللهجات العربية القديمة .

وهناك دليل ثالث على أصالة الكسر في حرف المضارعة , وهو استمراره حتى الآن في اللهجات العربية الحديثة كلها , إذ نقول مثلا :" مين يقرأ ومين يسمع ", بكسر حرف المضارعة في لغة التخاطب اليومية .

وقد بقيت بعض آثار هذا القديم في العربية الفصحى نفسها , في بعض الأمثلة , إذ يكسر في الفصحى حرف المضارعة في : "إخال " بمعنى "أظن " في كثير من النصوص التي وصلت إلينا , ومن شواهده قول أبي ذؤيب الهذلي :

فغبرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أني لاحق مستتبع

وقول العباس بن مرداس :

قد كان قومك يحسبونك سيدا وإخال أنك سيد معيون

وقول زهير بن ابي سلمى :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

وقول كعب بن زهير :

أرجو وآمل أن تدنو مودتها وما إخال الدنيا منك تنويل

وهذا ما يسميه البعض بالركام اللغوي للظواهر المندثرة في اللغة . ومعناه أن الظاهرة اللغوية , قبل أن تموت , قد تبقى منها أمثلة , تعين على معرفة الأصل.

3- الشنشنة

روت المصادر هذا اللقب منسوبا إلى لغة اليمن , ورواه ابن عبد ربه لقبيلة تغلب , وهو عبارة عن جعل الكاف شيناً مطلقاً , فقد سمع بعض أهل اليمن في عرفة يقول " لبيش اللهم لبيش " أي لبيك . ولا يزال هذا النطق شائعاً في بعض الأمثلة , في عامية " حضرموت " , إذ يقولون : " عليش " بدلا من :" عليك "وتتفق هذه الظاهرة من بعض الوجوه , مع ظاهرة "الكشكشة ".

4- الطمطمانية

ينسب هذا اللقب إلى طيء والأزد , وإلى قبائل حمير في جنوب الجزيرة العربية , وهو عبارة عن إبدال لام التعريف " ميما" فيقال مثلا : "طاب امهوا وصفا امجو " أي طاب الهواء وصفا الجو .

ويروون من شواهد هذه الظاهرة " ما جاء في الآثار , فيما رواه النمر بن تولب أنه صلى الله عليه وسلم , نطق بهذه اللغة في قوله : ليس من امبر امصيام في امسفر , يريد : ليس من البر الصيام في السفر"

ومن شواهدها قول بجير بن عتمة الطائي , أحد بني بولان :

ذاك خليلي وذو يعاتبني يرمي ورائي بامسهم وامسلمة

وسمع الأخفش من يقول :" قام امرجل , يريد : الرجل . قال أبو العباس (ثعلب): هذه لغة للأزد مشهورة .

كما وردت في كلام قاله ذو الكلاع الحميري :ط عليك امرأى وعلينا امفعال " أي عليك الرأي وعلينا الفعال .

وقد سمع ابن دريد هذه اللهجة في عصره باليمن , فقال :" وكبار في وزن فعال , وهي لغة يمانية , أهل اليمن يسمون الرجل الكبير كبارا , وذو كبار رجل منهم . وسمعت رجلا يقول : أم شيخ أم كبار ضرب رأسه بالعصو , أي بالعصا "

كما سمعها الهمذاني في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية , فقال :"سرو حميرة وجعدة , ليسوا بفصحاء , وفي كلامهم شيء من التحمير , ويجرون في كلامهم ويحذفون فيقولون : يا ابن معم , في يا ابن العم "

وقال كذلك :"وبلد سفيان بن أرحب فصحاء , إلا في مثل قولهم : أم رجل , وقيد بعيراك , ورأيت أخواك . ويشركهم في إبدال الميم من اللام في الرجل والبعير وما أشبهه :الأشعر وعك , وبعض أهل تهامة "

وفي كل هذه الأمثلة السابق , تستوي أل الشمسية , وأل القمرية , في إبدال لاميهما , وقيل إن هذه اللغة مختصة بالأسماء التي لا تدغم لام التعريف في أولها , نحو غلام وكتاب , بخلاف رجل وناس ولباس . قال ابن هشام النحوي : " وحكى لنا بعض طلبة اليمن أنه سمع في بلادهم من يقول :خذ الرمح واركب امفرس , ولعل ذلك لغة لبعضهم لا لجميعهم , ألا ترى إلى البيت (يرمي ورائي بامسهم وامسلمه), وأنها في الحديث (ليس من امبر امصيام في امسفر) دخلت على النوعين ".

والتفسير الصوتي لهذه الظاهرة , هو أن اللام والميم من فصيلة واحدة , وهي وهي مجموعة اللام والميم والنون Liquidaفصيلة الأصوات المتوسطة أو المائعة والراء , وهذه الأصوات يبدل بعضها من بعض كثيراً في اللغات السامية .

ولا تزال هذه الظاهرة شائعة في بعض جهات اليمن , كما أن منها كلمة في اللهجة المصرية , وهي كلمة " البارحة " التي ينطقها المصريون :"امبارح " !وفي فلسطين والأردن وأغلب الأقطار العربية .

5- العجرفية

ورد هذا اللقب في كلام ثعلب السابق :" ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم (وتلتلة بهراء) وكشكشة ربيعة , وكسكسة هوازن , وتضجع قيس , وعجرفية ضبة " . وقد نسبه ثعلب كما نرى لقبيلة " ضبة " , ولم يفسره أو يشرح المراد منه , وكذلك سكت كل من نقل هذا النص عنه , فلم يتحدثوا عنه بكلمة واحدة , فيما عدا صاحب محاضرات الأدباء , الذي عم في شرحه بقوله: "والعجرفية جفاء في الكلام".

6- العجعجة

ينسب هذا اللفظ إلى "قضاعة " , فقد حكى الأزهري عن أبي زيد أنه قال :"والعجعجة في قضاعة , كالعنعنة في تميم , يحولون الياء جيماً . كقوله :

المطعمون اللحم بالعشج

وبالغداة كسر البرنج

يقلع بالود وبالصيصج

أراد :بالعشي والبرني وبالصيصي "

ولم يقيد أبو زيد في هذا النص "الياء " بالتشديد , وإن كانت الياءات في الأبيات التي استشهد بها مشددة . وقد نص على تشديد الياء السيوطي فقال : " ومن ذلك العجعة في لغة قضاعة , يجعلون الياء المشددة جيما , يقولون في تميمي : تميمج"

غير أن الباحث في كتب اللغة يعثر على أمثلة كثيرة , أبدلت فيها الياء المخففة جيما, يقول ثعلب :" أبدلت من الياء الجيم في التشديد , لقرب مخرجها , ولا بأس أن تجيء في الياء المخففة , مثل :حجتي . أنشد:

يا رب إن كنت قبلت حجتج

فلا يزال شاحج يأتيك بج

وزاد الفراء على هذين البيتين قوله :

أقمر نهات ينزي وفرتج

يريد هذا الراجز : حجتي , ويأتيك بي , وبنزي وفرتي, وكلها أمثلة لياء المتكلم , وهي ليست ياء مشددة .

وقال أبو عمرو :" وهم يقلبون الياء الخفيفة أيضا إلى الجيم . قال الفراء:وذلك في بني دبير من بني أسد خاصة "

ونص البغدادي على أن بعض بني سعد يبدلون الياء شديدة كانت أو خفيفة , جيما في الوقف. والذي يسهل لإبدال الياء جيما, هو اتحادهما في المخرج , وهو الغار أو سقف الحنك الصلب , وكونهما مجهورين , أي تهتز معهما الأوتار الصوتية , والفارق الوحيد بينهما , هو أن الجيم من الأصوات التي تجمع في نطقها بين الشدة والرخاوة ,أو بعبارة أخرى بين الانفجار والاحتكاك , أما الياء فهي من الأصوات المتوسطة , التي فيها بعض الرخاوة ,أو بمعنى آخر تنطق بشيء من الاحتكاك . ولهذا السبب ,لا نعجب , حين نرى الصوتين , يتبادلان في اللهجات العربية القديمة والحديثة , فهذه هي "العجعجة " عند قضاعة , وهي إبدال الياء جيما. وهناك عكس هذه الظاهرة , وهو إبدال الجيم ياء , فقد روي أن تميم يقولون في :"الصهريج" وفي جمعه :"الصهاريج" , وهو الذي يجتمع فيه الماء: "الصهري والصهاري" , كما روى عن أبي عبيدة أنه قال :"يقال :لا أفعله جدا الدهر , مفتوح الأول منقوص , في معنى : لا أفعل ذلك يد الدهر , أي لآخر الدهر , كما روى أبو زيد أن بعض بني تميم قال :"شيرة " لشجرة .

وعلى ذلك أنشدت أم الهيثم :

لم يكن فيكن ظل ولا جنى فأبعدكن الله من شيرات

تريد "شجرات".

وهذه الظاهرة تشيع في عصرنا الحاضر , في بعض قرى جنوبي العراق , وبعض بلدان الخليج العربي , إذ يقولون في "مسجد" مثلا :"مسيد" , وفي "دجاج ":"دياي" وغير ذلك.

وتنسب ظاهرة "العجعجة "كذلك إلى بعض بني حنظلة , فقد روي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال :"قلت لرجل من بني حنظلة :ممن أنت ؟ فقال : فقيمج . قال : فقلت : من أيهم ؟ فقال :مرج , يريد : فقيمي ومري . كما تنسب هذه الظاهرة كذلك إلى " بعض بني سعد " , كما رأينا في نص البغدادي السابق , ويقول سيبويه كذلك : "وأما ناس من بني سعد , فأنهم يبدلون الجيم مكان الياء في الموقف ,لأنها خفية

فأبدلوا من موضعها أبين الحروف , وذلك قولهم : هذا تميمج, يريدون : تميمي ,
وهذا علج , يريدون : علي . وسمعت بعضهم يقول : عربانج , يريد :عرباني .

7- العنعنة

يعزى هذا اللقب إلى تميم وقيس وأسد ومن جاورهم , وإن اشتهر بإضافته إلى "تميم" من بين هذه القبائل جميعها .

ويختلف اللغويون العرب , في تحديد المراد بهذا اللقب , فأما الفراء وثعلب , فيجعلانه خاصا بالحرف أن (أو أن)المفتوح الهمزة , وينص الفراء على ذلك صراحة فيقول :" لغة قريش ومن جاورهم : أن . وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم , يجعلون ألف أن , إذا كانت مفتوحة عيناً , يقولون :أشهد عنك رسول الله , فإذا كسروا رجعوا إلى الألف .

ويقول الفراء كذلك :كما جعلوا مكان الهمزة عيناً في قوله :لعنك قائم , وأشهد عنك رسول الله , وهي لغة في تميم وقيس كثيرة .

أما ثعلب , فإنه وإن لم ينص على ذلك صراحة , فإن أمثلته كلها تدور حول "أن" المفتوحة الهمزة , إذ يقول : فأما عنعنة تميم , فإن تميما تقول في موضع أن :عن ,تقول: ظننت عن عبد الله قائم . قال (الأصمعي):وسمعت ذا الرمة , ينشد عبد الملك :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

قال : وسمعت ابن هرمة ينشد هارون (الرشيد) , وكان ابن هرمة ربى في ديار تميم :

أعن تغنت على ساق مطوقة ورقاء تدعو هديلا فوق أعواد

ومن ذلك أيضا قول جران العود :

فما أبن حتى قلن يا ليت عننا تراب وعن الأرض بالناس تخسف

وبينما يحدد الفراء وثعلب لهذه الظاهرة (أن) المفتوحة , نجد السيوطي لا يخصصها بأن وحدها , وإنما يشترط أن تكون الهمزة مبدوءا بها فحسب , يقول :ومن ذلك العنعنة , وهي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم , تجعل الهمزة المبدوء بها عينا , فيقولون في إنك : عنك , وفي أسلم :عسلم , وفي أذن : عذن .

ومثل هذا الاضطراب في الرواية " ليس له من سبب , سوى أن استقراء الرواة لأمثلة هذه الظاهرة الصوتية كان ناقصا , وأن الأمر في كل رواية , لايعدو أن يكون حكما خاصا , مبنيا على مثال خاص , سمعه الراوي دون استقراء لباقي الحالات , فاشتراط البدء بالهمزة , أو أن تكون في (أن) مفتوحة , ليس له مايبرره من الناحية الصوتية .

وأغلب الظن أن تخصيصه بأن المفتوحة , تبرير لهذا اللقب الذي وصفت به الظاهرة : العنعنة . والحقيقة أن هذا الإبدال عام في كل همزة , عند تميم ومن جاورهم , والدليل على هذا قول الخليل بن أحمد الفراهيدي : والخبع : الخبء في لغة تميم , يجعلون بدل الهمزة عينا.

وقال ابن دريد : وخبع الرجل في المكان , إذا دخل فيه , وأحسب أن هذه العين همزة , لأن بني تميم يحققون الهمزة , فيجعلونها عينا فيقولون : هذا خباعنا , يريدون : خباؤنا.

وإبدال الهمزة عينا هنا , نوع من المبالغة في تحقيق الهمز , كما يستفاد من نص ابن دريد , وذلك على طريقة نطق بعض أهالي صعيد مصر : " لع" في "لأ" مثلا . وأهل النوبة والسودانيون يقع في كلامهم هذا الإبدال كثيرا في أيامنا هذه , فقد سمعت بعضهم يقولون مثلا :"فلان سعل عليك " , يعني :" سأل".

وقد رويت لنا في العربية القديمة أمثلة كثيرة ,لانقلاب الهمزة عينا , وأغلب الظن أنها من عنعنة تميم كذلك , مثل قولهم :"صبأت على القوم وصبعت عليهم , وهو أن تدخل عليهم غيرهم , وقولهم :"انجأفت النحلة وانجعفت ,إذا انقلعت من أصلها , وقولهم :" الأسن : قديم الشحم , وبعضهم يقول : العسن " وغير ذلك.

8- الغمغمة

ينسب هذا اللقب إلى قضاعة , وهو من الألقاب التي أبهم اللغويون العرب في تحديدها , فقالوا في تعريفها كلاما عاما لايفيدنا , يقول المبرد وهو يشرح كلام الرجل الجرمي السابق أمام معاوية : والغمغمة أن تسمع الصوت , ولا يتبين لك تقطيع الحروف . ويقول الحريري : وأما غمغمة قضاعة , فصوت لا يفهم تقطيع حروفه . ويقول ابن يعيش : والغمغمة أن لايتبين الكلام . وأصله أصوات الثيران عند الذعر , وأصوات الأبطال عند القتال .

وفي النفس شيء من هذا اللقب , وأكاد أميل إلى أنه تحريف قديم لكلمة عجعجة قضاعة , وقع فيه الجاحظ ومن جاءوا بعده , ممن رووا خبر الرجل الجرمي أمام معاوية , وحاولوا تفسيره !

9- الفحفحة

ينسب هذا اللقب إلى قبيلة هذيل , باتفاق جميع اللغويين , وهم يقولون إنه عبارة عن قلب الحاء عينا . وقد قرئ به في القرآن الكريم في قوله تعالى :(حتى حين) يقول ابن جني : روى عن عمر أنه سمع رجلا يقرأ "عتى حين" , فقال :من أقرأك ؟ قال : ابن مسعود , فكتب إليه :إن الله عز وجل أنزل هذا القرآن فجعله عربيا, وأنزله بلغة قريش , فأقرأ الناس بلغة قريش , ولا تقرئهم بلغة هذيل , والسلام.

ويبدو من هذه الرواية –إن صحت – أن هذه الظاهرة لم تكن عامة في كل "حاء" عند قبيلة هذيل , إذ لم تقلب الحاء عينا في كلمة (حين) المجاورة لكلمة (حتى) في الآية القرآنية , أي أن هذا الإبدال

خاص بكلمة (حتى). ومما يقوي هذا الظن قول أبي عبيدة : قوم يحولون حاء حتى , فيجعلونها عينا , كقولك : قم عتى آتيك. وقال أبو الطيب اللغوي :ويقال :اصبر حتى آتيك , وعتى آتيك.

وهذا يذكر بما يقابل كلمة "حتى" في العبرية والآرامية , فهي في الأولى( ) وفي الثانية ( ) أي العين والدال , أي أنه كما جهرت الحاء في لغة هذيل فأصبحت عينا , فإن هذا هو ما حدث في هاتين اللغتين , وزاد الأمر فيهما أن تماثلت التاء مع العين , فجهرت هي الأخرى , فصارت دالا.

10- القطعة

هذا اللقب يعزى إلى قبيلة طيء , وهو عبارة عن قطع اللفظ قبل تمامه, قال الخليل بن أحمد الفراهيدي : والقطعة في طيء كالعنعنة في تميم , وهي أن يقول : يا أبا الحكا , وهو يريد: يا أبا الحكم , فيقطع كلامه عن إبانة بقية الكلمة .

فالقطعة على هذا نوع من ترخيم اللفظ , كما يقولون في مصر: "ياول" في :"ياولد" و"سلخى" في :"مساء الخير", وهي "لغة كثير من البلاد المصرية الآن , كالمحلة الكبرى وما حولها , وجزيرة بني نصر , وأبيار وكثير من مديريتي البحيرة وبني سويف , يقولون : النهار طلا , أي طلع , والنور ظها, أي ظهر , وخمدت النا, أي النار , وهلم جرا.

11- الكسكسة

يعزى هذا اللقب إلى قبيلة " بكر" , كما يعزى إلى "هوازن " وعن الفراء أنه في لغة " ربيعة ومضر وفي القاموس المحيط أن الكسكسة لغة لتميم لا لبكر .

واختلف اللغويون في تحديد المقصود بالكسكسة ,فذهب المبرد إلى أن قوما من بكر , يبدلون من الكاف سينا , ولكن أكثر القبيلة لا يجرون هذا الإبدال على الكاف , وإنما يتبعون كاف المؤنثة في الوقف سينا , يقول المبرد : وأما بكر فتختلف في الكسكسة , فقوم منهم يبدلون من الكاف سينا ...وهو أقلهم , وقوم يبينون حركة كاف المؤنث في الوقف بالسين , فيزيدونها بعدها , فيقولون أعطيتكس .

واقتصر بعض اللغويين على القول بأن الكسكسة هي إبدال كاف المخاطبة سينا , كما اقتصر على القول بأنها زيادة سين على كاف المخاطبة في الوقف.

والأصل في هذا قول سيبويه : واعلم أن ناسا من العرب يلحقون الكاف بالسين , ليبينوا كسرة التأنيث , وإنما ألحقوا السين لأنها قد تكون من حروف الزيادة في استفعل , وذلك : أعطيتكس وأكرمكس ,فإذا وصلوا لم يجيئوا بها , لأن الكسرة تبين .

كما يزعم الفراء أن الكسكسة عبارة عن إلحاق كاف المذكر سينا في لغة ربيعة ومضر , فرقا بين خطابي المذكر والمؤنث عند الوقف ولارتباط هذا اللقب بلقب الكشكشة الذي يأتي عقيب هذا , ولخلط اللغويين أحدهما بالآخر , نعالجهما علاجا واحداً , بعد عرض آرائهم في الكشكشة فيما يلي .

12- الكشكشة

يعزى هذا اللقب إلى ربيعة ومضر , كما يعزى إلى بكر وبني عمرو بن تميم وناس من أسد .

وهذه الظاهرة عند اللغويين , عبارة عن إبدال كاف المؤنث في الوقف شينا , أو إلحاقها شينا , وقد ذكر سيبويه هذين المذهبين من مذاهب العرب في الكشكشة , فقال : فأما ناس كثير من تميم , وناس من أسد , فإنهم يجعلون مكان الكاف للمؤنث الشين , وذلك أنهم أرادوا البيان في الوقف , لأنها ساكنة في الوقف , فأرادوا أن يفصلوا بين المذكر والمؤنث , وأرادوا التحقيق والتوكيد في الفصل , لأنهم إذا فصلوا بين المذكر والمؤنث بحرف كان أقوى من أن يفصلوا بحركة ... وذلك قولك : إنش ذاهبة , ومالش ذاهبة , يريد : إنك ومالك .... وقوم يلحقون الشين , ليبينوا بها الكسرة في الوقف , كما أبدلوا مكانها للبيان , وذلك قولهم : أعطيتكش وأكرمكش , فإذا وصلوا تركوها .

ويفهم من هذا الكلام لسيبويه , أن الكشكشة خاصة بكاف المؤنث في الوقف , وإن كانت أمثلته في إبدالها شينا , وهي : إنش ذاهبة , ومالش ذاهبة , ولاتصلح فيما يبدو إلا للوصل .

وقد أورد اللغويون بعض الشواهد على إبدال كاف المؤنث شينا في الوقف منها قول رؤبة :

تضحك مني أن رأتني أحترش

ولو حرشت لكشفت عن حرش

عن واسع يغرق فيه القنفرش

أي عن حرك, فحول كاف المخاطبة شينا في الوقف , لأنها في القافية .

13- اللخلخانية

هذا اللقب لم يعرف القدماء معناه على وجه التحديد , فأطلقوا معناه إطلاقا , وقالوا :هو اللكنة في الكلام والعجمة . والمسئول عن هذا التفسير فيما يبدو , هو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (المتوفى سنة 224ه) فهو يقول :"سمعت محمد بن الحسن بإسناد له لا أحفظه , عن رجل سماه وأكناه , أحسبه أبا الرباب , قال : كنا بموضع كذا وكذا , فأتانا رجل فيه لخلخانية , قال أبو عبيد :اللخلخانية العجمة .يقال : رجل لخلخاني , وامرأة لخلخانية , إذا كانا لايفصحان . قال البعيث بن بشر :

سيتركها إن سلم الله جارها بنو اللخلخانيات وهي رثوع

أراد : بني العجميات .

وقال ابن سيدة , بعد أن ذكر تفسير أبي عبيد : والتختخة اللكنة , ورجل تختخاني , وهو نحو اللخلخاني , إلا أن اللخلخاني الحضري المتجهور , المتشبه بالأعراب في كلامه .

وباللكنة في الكلام والعجمة , فسر ابن الثير قوم ارتفعوا عن لخلخانية العراق , في حديث معاوية السابق , ثم قال : وقيل هو منسوب إلى لخلخان , وهي قبيلة وقيل موضع. وقد مر في حديث معاوية , في بعض الروايات , عبارة : "فراتية العراق" بدلا من "لخلخانية العراق " فقال في تفسيرها ابن يعيش : والفراتية لغة أهل الفرات , الذي هو نهر أهل الكوفة . والفراتان : الفرات ودجيل , ويروى :لخلخانية العراق , واللخلخانية :العجمة في المنطق , يقال : رجل لخلخاني ,إذا كان لا يفصح. وأول من وضع للخلخانية تفسيرا محددا , هو أبو منصور الثعالبي (المتوفى سنة 429ه) , فقال : اللخلخانية تعرض في لغات أعراب الشحر وعمان , كقولهم : مشا الله كان , يريدون : ماشاء الله كان .

ولا شك أن السبب في تقصير الحركة هنا ,هو انتقال النبر إلى المقطع الثاني في هذه الجملة , والحركات الطويلة تعاني التقصير , بسبب تحول النبر عنها كما هو مشاهد في تطور اللغات .

14- الوتم

يعزى هذا اللقب إلى اليمن , وهو عبارة عن قلب السين تاء وينشد الفراء شاهدا على ذلك , قول علباء بن أرقم:

يا قبح الله بني السعلات

عمرو بن يربوع شرار النات

ليسوا أعفاء ولا أكيات

يريد بالنات : الناس , وبالأكيات : الأكياس .

ولو صح ما روي عنهم , ولم يكن الداعي إليه في هذا الرجز , هو ضرورة إقامة القافية على حرف واحد , كان من السهل تفسير قلب السين تاء , لأنهما من الناحية الصوتية متناظرتان في الرخاوة والشدة, أي أنهما يتفقان في المخرج, وهو الأسنان واللثة , كما يتفقان في الهمس , وهو عدم اهتزاز الأوتار الصوتية, ويتفقان أخيرا في الترقيق , والفرق الوحيد بينهما هو أن السين رخوة احتكاكية , والتاء شديدة انفجارية . والملاحظ أن الصوتين إذا تناظرا , أمكن قلب أحدهما إلى الآخر بسهولة , وأمامنا التناظر بين الحاء والعين , في الهمس والجهر , وما أدى إليه من حدوث ظاهرة "الفحفحة " التي عرضنا لها من قبل .

15- الوكم

يعزى هذا اللقب إلى ربيعة وقوم من كلب وناس من بكر بن وائل , وهو عبارة عن كسر الكاف من ضمير المتصل (كم) إذا سبق بكسرة , أو ياء , فيقولون : "بكم " في "بكم " و"عليكم " في "عليكم " .

وتعليل هذه الظاهرة , يخضع لقانون المماثلة بين الأصوات المتجاورة , إذ تأثرت ضمة الكاف بما قبلها من كسرة أو ياء , فقلبت كسرة , لتنسجم مع ما قبلها.

ولم يقف المبرد على سر هذه الظاهرة , فخطأها بشدة حين قال : وناس من بكر بن وائل يجرون الكاف مجرى الهاء ,إذ كانت مهموسة مثلها , وكانت علامة إضمار كالهاء , وذلك غلط منهم فاحش , لأنها لم تشبهها في الخفاء , الذي من أجله جاز ذلك في الهاء , وإنما ينبغي أن يجري الحرف مجرى غيره , إذا أشبهه في علته , فيقولون : مررت بكم .

16- الوهم

يعزى هذا اللقب إلى بني كلب كذلك , وهو عبارة عن كسر الهاء من ضمير الغائبين المتصل (هم) مطلقا , فيقولون : منهم ,عنهم و بينهم , في : منهم , عنهم و بينهم .

واللغة الفصحى تبقي الحركة الأصلية لهذا الضمير , وهي الضم ,إلا إذا وقع بعد كسرة قصيرة أو طويلة أو ياء , فتقول : (بصاحبهم وقاضيهم وعليهم) في :(بصاحبهم وقاضيهم وعليهم)بسبب قانون المماثلة بين الحركات, تماما كما حدث في (كم) في ظاهرة الوكم السابقة , عند ربيعة وكلب وبكر بن وائل .

ولا يحدث هذا في الفصحى في ضمير الغائبين المتصل (هم) فحسب , بل يحدث كذلك في ضمير الغائب المذكر (هـ) , وضمير الغائبات (هن) , وضمير المثنى للغائبين والغائبتين (هما) , بشرط أن تسبق هذه الضمائر جميعها بكسرة طويلة أو قصيرة أو ياء.

أما بنو كلب , فإنهم يطردون الباب على وتيرة واحدة , في الضمير (هم) فيكسرون هاءه مطلقا , سواء سبق بكسرة أو ياء , أم لم يسبق بواحدة منهما , فهم يجرون قانون المماثلة , فيما سبق بكسرة أو ياء كما في الفصحى , ويجرون القياس على ذلك , فيما لم يستوف هذا الشرط .

المحاضرة الثامنة

السليقة اللغوية ومصادر الاحتجاج

يرى اللغويون العرب القدماء, أن "السليقة" مرتبطة بالجنس والوراثة, أي أنه لا يتصور أن يسيطر على اللغة العربية غير العربي, كما أنه لا يمكن أن يتقنها إتقان العربي لها, وهم بذلك كأنما قد تصوروا أن هناك أمرًا سحريًا, هو سر السليقة, ذلك هو الجنس, فكأن الأمهات يرضعن السليقة في ألبانهن, وكأن تلك السليقة تتصل اتصالاً وثيقاً, برمالهم وآثارهم وأطلالهم ودمهم.

أما "السليقة" في رأي المحدثين فهي "لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل إتقان اللغة, عندها لا يكاد يشعر المتكلم بخصائص كلامه, من حيث الأصوات وأبنية الألفاظ, وتراكيب الجمل, فهو يورد الكلام بصورة آلية, دون أن يكون له أي اختيار في هذه النواحي, بل تصدر منه دون تعمد, وإنما على حسب ما سمع في صغره, ممن حوله من الكبار, وعلى نفس النهج الذي يسلكونه, فالمرء يبدأ حياته مقلداً للغة أبويه, وتصادفه عقبات وعثرات في هذا التقليد, ويمر بمراحل كثيرة, قبل أن يصل إلى تلك التي تسمى بمرحلة السليقة. أي أن اكتساب اللغة يبدأ بالتقليد وكثرة المران, ولا يقال للطفل في أثناء تعلمه لغة أهله, وقبل أن يسيطر عليها: إنه يتكلمها بالسليقة؛ فلا وراثة في السليقة اللغوية, وإنما الأمر كله رهن بالاكتساب والتقليد والمران, وعلى حسب ما تشكله البيئة, فاللغة ملك من يتعلمها, لا أثر للوراثة أو الجنس فيها؛ فالطفل الذي يولد من أبوين عربيين, ثم ينشأ بعيدًا عنهما في بيئة إنجليزية, يشب وينمو كالإنجليز تمامًا من حيث اللغة ... وليس في السليقة اللغوية, لدى المحدثين, شيء غامض أو أمر سحري, كما كان علماء العربية القدماء يظنون, حين ربطوا بينها وبين البداوة حينًا, أو الجنس العربي حينًا آخر؛ إذ لم يتصوروا أن الأجنبي عن العربية, يمكن أن يتقنها كأبناء العرب, مهما بذل من جهد, أو صرف من زمن.

وقط فطن إلى مثل هذا من القدماء, العلامة ابن خلدون, فقال: "اعلم أن اللغات كلها ملكات, شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان, للعبارة عن المعاني, وجودتها وقصورها, بحسب تمام الملكة أو نقصانها ... والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة, ثم تتكرر فتكون حالاً, ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة, ثم يزيد التكرار فتكون ملكة, أي صفة راسخة.

ولأن القدماء قد ذهبوا إلى أن اللغة العربية, تجري في دماء العرب, فقد أخذوا اللغة عن كل العرب, حتى عن الأطفال والمجانين والنساء, ولكنهم – والحق يقال – شعروا بوجود مستويات مختلفة في اللغة, فتحدثوا عن الفصيح والأفصح والأقل فصاحة, والرديء المذموم, والشاذ, والحوشي والغريب, والنادر. وكانت المعايير التي استندوا إليها في ذلك غامضة, فكثيرًا ما تقابلنا في المعاجم عبارات مثل : "وهي اللغة العليا" بلا علة واضحة لهذا الحكم!

وعندما بدأ قدامى اللغويين العرب في تدوين اللغة مع غموض معاييرهم وجدناهم يقسمون تلك اللغة إلى أقسام : القرآن الكريم, والحديث الشريف, والشعر, والنثر.

أما القرآن الكريم : فقالوا إن كل رواياته فصيحة, حتى الشاذ منها, ولو أنه لا يقاس عليها, فهذا هو ابن جني يقول : "غرضنا أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذاً, وأنه ضارب في صحة الرواية بجيرانه, آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه". كما يقول البغدادي : "كلامه – عز اسمه – أفصح كلام وأبلغه, ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه".

وأما الحديث, فيرفضون الأخذ به في الاستشهاد, محتجين بأنه قد سمحت الرواية فيه بمعناه لا بلفظه, كما أن كثيرًا من رواته كانوا من المولدين. وقد ظل الأمر كذلك, حتى جاء ابن مالك فأجاز الاستشهاد به. ومن أعلام المانعين من الاستشهاد به : ابن الضائع وأبو حيان. أما ابن مالك فقد أخذ

مثلاً قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار" شاهدًا على لغة "أكلوني البراغيث", وهي اللغة التي تلحق الفعل ضمير تثنية أو جمع, إذا كان الفاعل مثنى أو مجموعًا. وقد عرفت هذه اللغة بهذا الاسم, لأن سيبويه أول من مثل لها في كتابه, فاختار هذا المثال, فقال : "في قول من قال : أكلوني البراغيث". كما قال : "ومن قال : أكلوني البراغيث, قلت على حد قوله : مررت برجل أعورين أبواه", وإن كان قد ضرب لهذه الظاهرة أمثلة أخرى في كتابه, فقال : "واعلم أن من العرب من يقول : قالت فلانة, فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة, كما جعلوا للمؤنث, وهي قليلة".

وقد حكيت هذه اللغة عن قبيلة "بلحارث بن كعب, كما حكاها البصريون عن قبيلة طيئ, وبعض النحويين يحكونها عن قبيلة أزد شنودة. والأصل في اللغات السامية, أن يعامل الفعل فيها معاملته في لغة "أكلوني البراغيث", وقد بقى من هذا الأصل في العربية, أمثلة في اللهجات المختلفة, كما توجد منه بعض الأمثلة في القرآن الكريم, والحديث الشريف, والأشعار.

فمما جاء منه في القرآن الكريم قوله تعالى : { وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ }وقوله تعالى : { ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ } . ومما جاء في الحديث الشريف, قوله صلى الله عليه وسلم : (يعتزلن الحيض المصلى) وقوله : (ما أغبرتا قدما عبد في سبيل الله). ومما جاء في الشعر قول عمرو بن ملقط الطائي الجاهلي :

ألفيتا عيناك عند القفا أولى فأولى لك ذا واقيه

وقول أحيحة بن الجلاح :

يلومونني في اشتراء النخيـــــــــــــل أهلي فكلهم يعذل

وقول مجنون ليلى :

ولو أحدقوا بي الإنس والجن كلهم أولى فأولى لك ذا واقيه

وقول ابن قيس الرقيات :

تولى قتال المارقين بنفسه وقد أسلماه مبعد وحميم

وهذه الظاهرة هي الشائعة في كلامنا, في اللهجات العربية الحديثة, كقولنا : "ظلموني الناس". وقد جعل الحريري ذلك من لحن العامة, ورد عليه الشهاب الخفاجي, فقال : "وليس الأمر كما ذكره, فإن هذه لغة قوم من العرب, يجعلون الألف والواو حرفي علامة للتثنية والجمع, والاسم الظاهر فاعلاً, وتعرف بين النحاة بلغة أكلوني البراغيث؛ لأنه مثالها الذي اشتهرت به, وهي لغة طيئ, كما قاله الزمخشري, وقد وقع منها في الآيات والأحاديث وكلام الفصحاء مالا يحصى.

كما عنى ابن مالك بالاستشهاد بالحديث, فقد عنى به كذلك الإمام الرضي, وزاد عليه الاحتجاج بكلام أهل البيت, رضي الله عنهم.

ومن علماء العصور المتأخرة, أمثال الإمام "الشاطبي" من قسم الأحاديث إلى قسمين : قسم يظن أن العناية قد وجهت إلى ألفاظه لغرض خاص, كالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحته صلى الله عليه وسلم, ككتابه لهمذان, وكتابه لوائل بن حُجر, والأمثال النبوية, فهذا يصح الاستشهاد به في العربية. وقسم يظن أن العناية وجهت فيه إلى المعنى, وقد رأى الشاطبي أنه لا يصح الاستشهاد به مطلقاً.

هذا بالنسبة للقرآن والحديث. أما بالنسبة للشعر, فقد قسم اللغويون الشعراء إلى أربع طبقات :

طبقة الجاهليين : كزهير وطرفة وعمرو بن كلثوم.

طبقة المخضرمين : وهم الذين شهدوا الجاهلية وصدر الإسلام كالخنساء وحسان بن ثابت وكعب بن زهير.

طبقة الإسلاميين : كجرير والفرزدق والأخطل.

طبقة المولدين أو المحدثين : وهم يبدؤون في العصر العباسي, ببشار بن برد وأبي نواس.

وقد أجمع علماء اللغة على أن شعراء الطبقتين الأوليين, يحتج بشعرهم بغير نزاع. أما الطبقة الثالثة, فمعظم اللغويين يرون صحة الأخذ بشعر هذه الطبقة, غير أن بعضهم كان يأبي الاحتجاج به. وأما الطبقة الرابعة, فقد رفض اللغويون الاحتجاج بشيء من شعرها, فيما عدا الزمخشري الذي أجاز ذلك.

يقول البغدادي : "فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعًا. وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها. وقد كان أبو عمرو بن العلاء, وعبد الله بن أبي إسحاق, والحسن البصري, وعبد الله بن شبرمة, يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم ... في عدة أبيات أخذت عليهم ظاهرًا, وكانوا يعدونهم من المولدين؛ لأنهم كانوا في عصرهم, والمعاصرة حجاب".

وقال ابن رشيق : "كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه, بالإضافة إلى من كان قبله. وكان أبو عمرو يقول : لقد أحسن هذا المولد, حتى قد هممت أن آمر صبياننا برواية شعره – يعني بذلك شعر جرير والفرزدق – فجعله مولدًا, بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين, وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين. قال الأصمعي : جلست إليه عشر حجج, فما سمعته يحتج ببيت إسلامي".

وأما الطبقة الرابعة, فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً, وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم, واختاره الزمخشري, فاستشهد في تفسير أوائل البقرة في الكشاف, ببيت من شعر أبي تمام, وقال : "وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة, فهو من علماء العربية, فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه, ألا ترى على قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة, فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه". واعترض عليه بأن قبول الرواية مبني على الضبط والوثوق, واعتبار القول مبني

على معرفة أوضاع اللغة العربية, والإحاطة بقوانينها, ومن البين أن إتقان الرواية, لا يستلزم إتقان الدراية.

ويتبين لنا من ذلك أنهم لم يقسموا الشعر على أساس القبائل, بل ارتضوا كل ما نظم من شعر, في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية, ولكنهم حين تعرضوا للنثر, رأيناهم يسلكون مسلكاً مخالفاً لذلك, فهم يختلفون في الفصيح منه, وغير الفصيح, ويضعون قوائم بأسماء القبائل, التي يصح أخذ النثر عنها؛ ففي القرن الرابع الهجري, نجد أبا نصر الفارابي (المتوفى سنة 350 هـ), يضع قائمة بأسماء قبائل معينة, وقد جاء بعده من حذا حذوه أو نقل عنه, حتى جاء ابن خلدون الذي سار على هديه في ذلك.

يقول الفارابي في أول كتابه المسمى الألفاظ والحروف : "كانت قريش أجود العرب انتقادًا للأفصح من الألفاظ, وأسهلها على اللسان عند النطق, وأحسنها مسموعًا وإبانة عما في النفس. والذين عنهم نقلت اللغة العربية, وبهم اقتدى, وعنهم أخذ اللسان العربي, من بين قبائل العرب هم : قيس, وتميم, وأسد؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه, وعليهم اتكل في الغريب, وفي الإعراب والتصريف, ثم هذيل, وبعض كنانة, وبعض الطائيين, ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. بالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط, ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم, التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم, فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام, فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط, ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد, فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام, وأكثرهم نصارى يقرءون في صلاتهم بغير العربية, ولا من تغلب ولا النمر, فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية, ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس, ولا من عبد القيس, لأنهم كانوا سكان البحرين, مخالطين للهند والفرس, ولا من أزد عمان مخالطتهم للهند والفرس, ولا من أهل اليمن أصلاً, لمخالطتهم للهند والحبشة, ولولادة الحبشة فيهم, ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة, ولا من ثقيف وسكان الطائف, لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم, ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب, قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنهم. والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء, وأثبتها في كتاب, وصيرها علمًا وصناعة, هم أهل الكوفة والبصرة فقط, من بين أمصار العرب

كما يقول ابن خلدون في مقدمة كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر", تحت فصل عنوانه : (فصل في أن اللغة ملكة صناعية) : "ولهذا كانت لغة قريش, أفصح اللغات العربية وأصرحها؛ لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم, ثم من اكتنفهم من ثقيف, وهذيل, وخزاعة, وبني كنانة, وغطفان, وبني أسد, وبني تميم. وأما من بعد عنهم من ربيعة, ولخم, وجذام, وغسان, وإياد وقضاعة, وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة, فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم, وعلى نسبة بعدهم من قريش, كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية".

وإننا حين نستعرض كل تلك الروايات, نستطيع أن نرى فيها أساسين أو عاملين, كانا في ذهن أصحاب هذه الروايات :

الأول : كلما قربت القبيلة من بيئة قريش, كانت أقرب إلى الفصاحة, وإلى الأخذ بكلامها.

الثاني : على قدر توغل القبيلة في البداوة, تكون فصاحتها.

وعلى هذا الأساس نجد ابن جنى (المتوفى سنة 392 هـ), يضع فصلاً في كتابه "الخصائص" بعنوان : "باب في ترك الأخذ عن أهل المدر, كما أخذ عن أهل الوبر". والمدر والوبر, تقابلان : الحضر والبدو, لأن المدر جمع مدرة, وهي القرية. وهذا يعني أن العلماء أخذوا يقسمون اللغة, إلى لغة حضرية, وأخرى بدوية, ويعتنون بالثانية ويحتكمون إلى أهلها.

ومما يصدق هذا ما رواه السيرافي من قوله : "حدثنا أبو بكر بن دريد, قال : رأيت رجلاً في الوراقين بالبصرة, يفضل كتاب المنطق ليعقوب بن السكيت, ويقدم الكوفيين, فقيل للرياشي, وكان قاعدًا في الوراقين, ما قال؛ فقال : إنما أخذنا اللغة عن حرشة الضباب, واكلة اليرابيع, وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ, وأكلة الشواريز, أو كلام يشبه هذا".

ويروي السيوطي عن الأندلسي في شرح المفصل, أن "الكوفيين لو سمعوا بيتاً واحدًا, فيه جواز شيء مخالف للأصول, جعلوه أصلاً, بوبوا عليه, بخلاف البصريين". كما يروي عنه كذلك أنه قال : "ومما افتخر به البصريون على الكوفيين, أن قالوا : نحن نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع, وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز, وباعة الكوامخ".

ومن العجيب أن هؤلاء البدو, لم يكونوا في ثقافة هؤلاء العلماء, الذين يأخذون اللغة عنهم, ولكن هؤلاء كانوا يعتقدون أن اللغة تجري في دمائهم, ويجهلون أن اللغة أمر مكتسب, يمكن أن يتقنها غير أهلها, إذا مارسوها طويلاً منذ المولد.

وأعجب من هذا أن هؤلاء اللغويين, خلطوا في جمعهم للنثر, بين اللغة العربية الفصحى واللهجات, خلطاً عجيبًا. ويقول "أبو حاتم السجستاني" عن "الكسائي" رأس مدرسة الكوفة في النحو واللغة : "وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل, إلا حكايات عن الأعراب مطروحة؛ لأنه كان يلقنهم ما يريد". كما يقول أبو زيد الأنصاري : "قدم علينا الكسائي البصرة, فلقي عيسى والخليل وغيرهما, وأخذ منهم نحوًا كثيرًا, ثم صار على بغداد, فلقي أعراب الحطمة, فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن, فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله". وقال ابن دستويه : "كان الكسائي يسمع الشاذ, الذي لا يجوز إلا في الضرورة, فيجعله أصلاً, فيقيس عليه, واختلط بأعراب الأبلة, فأفسد بذلك النحو".

ومعلوم أن هذه الآراء كلها, هي آراء البصريين, الذين يختلفون عن الكوفيين في منهج البحث, والمقياس الذي يوضع أساسًا للأخذ عن العرب؛ فقد اختار البصريون قبائل معينة, للأخذ عنها, وتركوا ما عداها, محتجين بفساد لغتها, وكانوا يسمون لغات هذه القبائل باللغات الشاذة التي لا يعمل بها. أما الكوفيون فإنهم كانوا يوثقون كل العرب على السواء, ويعدون كل ما جاء عنهم حجة, فيعتدون بأقوالهم, ويؤسسون عليها نحوهم وقواعدهم.

والواقع أن كلا الفريقين مخطئ في نظرته هذه, إذا كان الهدف هو وضع قواعد للغة الفصحى, أو بعبارة اخرى للغة الأدبية المشتركة بين العرب جميعًا, فلم يكن الفرق بين اللغة المشتركة واللهجات, واضحًا في أذهان اللغويين, في هذه الحقبة من التاريخ, وضوحًا تامًا؛ ولذلك سعى البصريون للأخذ عن قبائل معينة, وهدفهم هو الوصول إلى تفنيد اللغة الأدبية المشتركة, غير أنهم لم يفرقوا فيما أخذوه عن هذه القبائل, بين تلك اللغة المشتركة, ولهجات الخطاب. ومن هنا جاء الخلط والاضطراب, ورأيناهم يؤولون كل مثال شذ عن قواعدهم. ولم يكن الكوفيون أقل منهم حظاً

ضرورة الشعر والخطأ في اللغة.....

عرفنا من قبل موقف اللغويين العرب من السليقة اللغوية, وأنهم كانوا يرونها مرتبطة بالجنس والوراثة, ولذلك كان كثير منهم لا يجرؤ على تخطئة الشعراء, الذين كان يضطرهم وزن الشعر وموسيقاه, إلى مخالفة النظام اللغوي في بعض الأحيان, سواء في بنية الكلمة أم في الإعراب, ولم يكن كثير من هؤلاء اللغويين والنحويين, يعترف بما يسمى "ضرورة الشعر" فلم يكونوا يتصورون أن يخطئ شاعر في هذه اللغة؛ لأنه يتكلمها بالسليقة في نظرهم, فإذا وجدوا في شعر شاعر خروجًا عن المألوف في القواعد, راحوا يلتمسون له المعاذير والحيل, ويتكلفون في التأويل والتخريج ما لا يحتمل؛ فإنه مثلاً على الرغم من أن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي, قد عاب الفرزدق وخطأه في قوله :

وعض زمان يا بان مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فإننا نجد من النحويين المتأخرين, من يدافع عن الفرزدق, ويلتمس له مخرجًا, كابن الأنباري الذي يقول : "فرفع (مجلف) على الاستئناف, كأنه قال : أو مجلف كذا".

بل إن النحاة سرعان ما غيروا في رواية البيت, لكي يستقيم لهم ما يريدون من وجوه التأويل؛ يقول ابن جنى : "فأما قولهم : وَدَعَ الشيء يدِع – إذا سكن – فاتَّدع, فمسموع متبع. وعليه أنشد بيت الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يَدِعْ من المال إلا مسحتٌ أو مجلفٌ

فمعنى لم (يَدِعْ), بكسر الدال : أي لم يدع ولم يثبت, والجملة بعد (زمان) في موضع جر, لكونها صفة له, والعائد منها إليه محذوف للعلم بموضعه, وتقديره : لم يدع فيه او لأجله من المال إلا مسحت أو مجلف, فيرتفع (مسحت) بفعله و(مجلف) عطف عليه".

وعلى الرغم مما في كلام ابن جني من التكلف الزائد, وبنائه على رواية مغيرة, لم يقلها الفرزدق نفسه, فإنه يقول بعد ذلك : "وهذا أمر ظاهر, ليس فيه من الاعتذار والاعتلال ما في الرواية

الأخرى" ! وقد صدق ابن عبد ربه حين علق على هذا البيت بقوله : "وقد أكثر النحويون الاحتيال لهذا البيت, ولم يأتوا فيه بشيء يرضي".

والدليل عندنا على أن الشاعر, كان يحفل بموسيقى الشعر والقافية, ولا يأبه بالنظام اللغوي دون شعور منه أحيانًا, ما قاله محمد بن سلام في تعليقه على بيت الفرزدق, وعبارته : "وقال أبو عمر بن العلاء : لا أعرف له وجهًا. وكان يونس لا يعرف له وجهًا. قلت له : لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه. قال : لا, كان ينشدها على الرفع, وأنشدنيها رؤبة بن العجاج على الرفع".

وقد رأينا من قبل أن ما يسمى "بالإقواء" في الشعر, ليس إلا خطأ في قواعد النحو, يقع فيه الشاعر, لكي يحتفظ بموسيقى القافية في شعره, وإن كان بعض النقاد القدماء, يرون أن الشاعر كان يخالف موسيقى القافية, لكي يصحح النحو, وهذا ما يسمونه "بالإقواء" في نظرهم؛ يقول قدامة بن جعفر, وهو يتحدث عن عيوب القافية : "ومن عيوبها الإقواء, وهو أن يختلف إعراب القوافي, فتكون قافية مرفوعة مثلاً وأخرى مخفوضة, وهذا في شعر الأعراب كثير, وفي من دون الفحول من الشعراء. قال إسحاق : قلت ليونس : عبيد الله ابن الحر يقوي, فقال : الإقواء خير منه. وقد ركب بعض الفحول الإقواء في مواضع, مثل ما قال سحيم بن وثيل الرياحي :

عذرت البزل إن هي خاطرتني وماذا يدري الشعراء مني

فما بالي وبال ابن اللبون وقد جاوزت رأس الأربعين

ويهمنا في نهاية هذا الفصل, أن نؤكد مرة أخرى أن هذه الضرورات, التي أشرنا إلى أهمها هنا, ليست إلا أخطاء في اللغة, وخروجاً على النظام المألوف في العربية شعرها ونثرها, بدليل ورود آلاف من الأمثلة الصحيحة لهذه الظواهر في الشعر نفسه, وهذا هو الفرق الوحيد بينها وبين الظواهر التي تحدثنا عنها في الفصل السابق, والتي يختص الشعر فيها بنماذج معينة, تميزه عن لغة النثر, وهي نماذج يجب أن تحصى باستقراء الأشعار المختلفة, ثم تبنى عليها قواعد للغة الشعر, وهو ما نرجو أن تتكفل به بحوث المستقبل.

المحاضرة التاسعة

الخط العربي : نشأته, وتطوره, مشكلاته

1 – الكتابة ونشأة الخط العربي

الكتابة رمز للغة, كما أن اللغة رمز للفكر. وهي ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة, استخدمها الإنسان منذ أقدم العصور لتسجيل خواطره, رغبة منه في تذكرها, أو توصيلها إلى غيره من بني البشر عبر الزمان والمكان. فأفادته في شتى شؤونه الاجتماعية, حتى أننا نعدها أحد أهم أسباب التقدم الحضاري في مختلف المجالات. والثابت أن الكتابة مرت بأطوار عدة, قبل أن تصل إلى الطور الهجائي المستخدم في أيامنا هذه. ولا شك في أن مرورها بهذه الأطوار كان يتوافق مع قدرة العقل الإنساني على تقبل فكرة الرمز بديلاً عن الواقع الحسي.

ولئن أجمع الباحثون على أن الفينيقيين هم الذين نشروا الحروف الهجائية, وعلى أن حروفهم هي أصل كل هجاء, فقد اختلفوا في مكان نشوء الخط العربي, وطريقة وصوله إلى العرب. وأغلب الظن, أن الخط العربي القديم اشتق من الخط النبطي, الذي اشتق بدوره من الخط الآرامي. والثابت أن العرب – في إطار الجهود التي بذلوها في خدمة لغتهم – تمكنوا من إدخال إصلاحات على خطهم أهمها :

أ – الشكل أو العلامات الإعرابية : كانت الكتابة العربية, في بدء أمرها, نظامًا قاصرًا إلى حد ملحوظ , وذلك بسبب عدم احتوائها على رموز مستقلة للحركات القصار, مما أدى إلى انتشار اللحن بين العرب. وقد حاول هؤلاء علاج هذا النقص, فوضعوا علامات للشكل تساعد على القراءة والفهم. ويرجح أن العرب قد اقتبسوا طريقة الإعراب هذه عن السريان الذين كانوا يلجؤون إلى نظام النقط في تشكيل كتبهم بصورة خاصة, والمقدسة منها بصورة أخص.

ب – التنقيط *:* يعرف بنقط الإعجام, ووظيفته التمييز بين الأحرف المتشابهة (ب, ت, ث, ج, ح, خ, ..). وخلاصة الأمر أن نظام التنقيط كان معروفاً قبل الإسلام, إلا أنه لم يكن يشمل كل الأحرف المنقوطة حاليًا, إذ إن بعض الحروف كانت تستعمل لأكثر من صوت. فلما كثر التصحيف في العراق فزع الحجاج بن يوسف الثقفي, كما يروى, إلى كتابه, في عهد عبد الملك بن مروان, وسألهم أن يضعوا علامات لتمييز الحروف المتشابهة. وبعد التفكير والمراجعة, تقرّر وضع النقط بشكلها الحالي, مع إقرار مبدأ الإهمال والإعجام. كما اتفق على جمع الحروف المتشابهة مما اضطرهم إلى مخالفة الترتيب القديم (أي الترتيب الأبجدي), والترتيب الذي اتبعه الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه "العين" (أ, ب, ت, ث, ج, ح, خ, ..) القائم على أساس وضع الحروف المتشابهة بصورة الرسم, بعضها قرب بعض.

عيوب الخط العربي

على الرغم مما أدخل على الخط العربي من إصلاحات, منذ نشأته حتى اليوم, فإنه ما زال يحتفظ بعيوب عدة, كثر الكلام عليها في مطلع عصر النهضة, ولاسيما بعد انتشار الطباعة والمدارس, واطلاع العرب على الخطوط الأجنبية, ورغبة بعضهم في التخلص من صعوبات القراءة والكتابة جميعًا مهما يكن الثمن. **وهذه العيوب فصّلها الباحثون استناداً إلى مواصفات الخط المثالي, وتتلخص بما يلي :**

أ – خلوه من الحروف الصائتة القصيرة : وهذه مسألة مبنية في واقع أمرها على نظام الكتابة في العربية. ففي هذا النظام ثلاثة صوائت قصيرة لكل منها رمز خاص. فللفتحة رمز هو عبارة عن ألف صغيرة مضطجعة فوق الحرف, وللكسرة رمز آخر هو عبارة عن خط صغير مائل تحت الحرف, وللضمة رمز ثالث هو واو صغيرة توضع فوق الحرف. وهذه الحركات طارئة على الخط, غير داخلة في صلبه بمعنى أن الكتابة كتابتان : واحدة مجرّدة من الحركات, وأخرى مشكلة. وكلتاهما تطرح مسائل وتثير مشاكل. أما الكتابة المجردة من الحركات, فلا تتيسر قراءتها الصحيحة المسترسلة إلا لفئة من خيرة المتعلمين تكون قد فهمت, من قبل, معنى ما تقرأ, ذلك أن للكلمة الواحدة أشكالاً مختلفة من القراءات, ولعل هذا الأمر هو الذي حدا بقاسم أمين, إلى القول : إن القارئ في اللغات الأوروبية يقرأ ليفهم, أما القارئ في اللغة العربية فعليه أن يفهم ليقرأ

هذا فضلاً عن أن الكتابة المجردة من الحركات, تثير ثلاث مشاكل أخرى :

أولاها أنها تطرح صعوبة قراءة الأعلام الأجنبية أو المصطلحات المعربة وما شاكلها قراءة صحيحة, مما يحمل الباحثين, رفعاً للبس ودفعاً للاضطراب, على إثبات هذه المصطلحات وتلك الأعلام, بالأحرف اللاتينية, مباشرة بعد إثباتها بالعربية.

والثانية أنها تؤدي أحياناً, إلى خداع المعلمين في تصحيح, ما يكتبه التلاميذ. فأحياناً يتعمد التلميذ إهمال الشكل, ليحمل الكلمة المكتوبة أوجهاً مختلفة في الأداء, تاركاً للمعلم حرية الاختيار. وغالباً ما تنطلي الحيلة على المعلم, فيقرأ الكلمة على الوجه الصحيح, ظناً منه أن التلميذ قد كتبها على هذا الوجه. والحقيقة أن كثيرين من الكتاب يعيشون على حسن نوايا القراء.

والمشكلة الثالثة, أن هذا الضرب من الكتابة, يساعد على شيوع اللحن, وانحلال الفصحى وانتشار اللهجات.

أما فيما يختص بالكتابة مع "الشكل", فيبدو أن مشاكلها هي الأخرى كثيرة من أهمها :

إنها تتطلب مجهوداً كبيراً, ووقتاً أطول, وتكاليف باهظة في الطباعة بالنسبة إلى الكتابة دون "الشكل", أو بالنسبة إلى الخط اللاتيني.

إن حركاتها مجلبة لكثير من الأضرار, لأن الحركة المنفصلة عن الحرف, كثيرًا ما تقع على غير الحرف الذي جاءت له, وذلك لعدم ضبط يد الكاتب الأصلي أو الناسخ أو الطابع.

إنها تجبر القارئ على الإكثار من نقل نظره من السطر إلى ما فوقه, أو إلى ما تحته, باعتبار أن حركات العربية, لا تكون إلا تحت الحرف أو فوقه. وهذا التنقل في حركة العين يُجهد النظر ويكد الذهن.

ب – تعدد صور الحرف الواحد : لا شك في أن نظام للكتابة في العربية نظام مثالي من حيث تخصيص كل وحدة صوتية برمز واحد مستقل. ففي العربية ثمانية وعشرون صوتاً صامتاً يقابلها ثمانية وعشرون رمزاً مختلفاً خُصص كل رمز منها لصوت لا يتعداه. إلا أن تعدد صور الحرف

الواحد حسب كونه منفصلاً أو متصلاً, وحسب موقعه من الكلمة, يترتب عليه أضرار عدة منها أنه :

يؤدي إلى صعوبة تعلمه.

ج – تقارب صور الحروف في الرسوم وعدم تميّز بعضها من بعض إلا بالإعجام أو الإهمال أو عدد النقط : وهذا التقارب تترتب عليه أضرار عدة منها :

إن رسم الحروف المعجمة يتطلب إسرافاً في الجهد لوضع النقط في أماكنها.

إن القلم كثيراً ما يزل في تدوين هذه النقط, فيغفل بعضها, أو ينقص من عددها أو يزيده, أو ينحرف بها عن موضعها وخاصة في الرسم السريع.

إن تشابه الحروف وكثرة النقط, يؤدي إلى جهد النظر, وكد للتفريق بينها. وأحياناً تطغى النقط على الحروف, حتى يكاد القارئ لا يرى سوى النقط.

بالإضافة إلى عيوب الخط العربي, تأتي عيوب الإملاء, ومنها كتابة الألف "ياء" مهملة أحياناً, وإسقاط حرف المد في رسم بعض الكلمات, ومنها أيضاً طريقة كتابة الهمزة وما فيها من قواعد وما حول رسمها من اختلاف, وكتابة المدة, وطريقة كتابة الألف والتاء في آخر الكلمة, وكتابة "إذاً" ... إلخ.

3 – دعوات إصلاح الخط العربي

أمام عيوب الخط العربي الآنفة الذكر, رأى مجمع اللغة العربية, أن يأخذ على عاتقه مسألة تيسيره, فشكل في السنة 1938 لجنة لدراسة هذا الموضوع. لكن هذه اللجنة لم تخلص إلى نتيجة تذكر. وقد تقدم عبد العزيز فهمي بمشروع, يقضي بتبني الحروف اللاتينية في الكتابة العربية, كما تقدم علي الجارم, بمشروع آخر, يتعلق بتيسير الخط العربي, فناقش المجمع المشروعين في عدة جلسات, ثم قرر طبعهما مع ما دار حولهما من نقاش, وعرض ذلك كله على الدول العربية. كما قرر وضع جائزة قدرها ألف جنيه لأحسن اقتراح في تيسير الكتابة. وما أن أعلنت المسابقة حتى تلقى المجمع أكثر من مائتي مقترح, فتولت لجنة فنية دراستها, وقضت في ذلك عدة سنوات, دون أن تتوصل إلى نتائج تذكر. أما الاقتراحات فيمكننا تقسيمها إلى قسمين رئيسين :

أ – قسم يطالب بإجراء إصلاحات شكلية, لا تمس جوهر اللغة, ولا صورة الرسم الحاضر.
وقد ظهرت في هذا القسم ثلاثة اتجاهات :

اتجاه يرمي إلى معالجة مشكلة الحركات فقط ويمكن أن تصنف فيه كل من اقتراحات أحمد لطفي السيد, وعلي الجارم, والجنيدي خليفة, وأنستاس الكرملي, وعبد المجيد التاجي الفاروقي, والشيخ عبد الله العلايلي.

اتجاه يرمي إلى معالجة مشكلة تعدد رسم الحرف الواحد. ويصح أن يصنف فيه اقتراح المهندس نصري خطار, ومحمود تيمور.

اتجاه يرمي إلى معالجة مشكلتي الحركات وتعدد رسم الحرف الواحد في آن معاً. ويمكن أن تصنف فيه كل من اقتراح علي عبد الواحد وافي, ونجيب مخول.

ب – قسم آخر يريد إدخال تغيير جوهري في اللغة نفسها وفي صورة رسمها. وفي هذا القسم يمكننا أن نصنف الدعوة إلى الحرف اللاتيني التي شارك فيها الكثيرون.

4 – الدعوة إلى اللاتينية

إن الدعوة إلى الكتابة بالحرف اللاتيني, قديمة نسبياً تعود إلى السنة 1880 عندما اقترح ولهام سبيتا (Wilhelm Spitta) الذي كان مديراً لدار الكتب المصرية آنذاك, كتابة العامية التي يدعو إليها بالحرف اللاتيني. وقد أثبت سبيتا كذلك في كتابه "قواعد العربية العامية في مصر" جدولاً مقارناً بين الحروف العربية والحروف اللاتينية المقترحة.

وكان أيضاً مديراً K. Vollers) وفي السنتين 1890 و1901 نهج كل من كارل فولرس (Seldon Willmore), لدار الكتب المصرية يومذاك, والقاضي الإنكليزي في مصر سلدن ولمور ( ) نهج سبيتا نفسه في الدعوة إلى العامية وإلى الحرف اللاتيني على حد سواء. لكن يبدو أن هذه الدعوة لم تظهر ظهوراً ملفتاً للنظر إلا في السنة 1943, عندما اقترح عبد العزيز فهمي, على مجمع اللغة العربية في القاهرة, استخدام الحرف اللاتيني بدلاً من الحرف العربي, متمثلاً بما فعله مصطفى كمال في تركيا. ولقد درس المجمع اقتراح فهمي, ثم قرر طبعه مع ما دار حوله من مناقشات, لعرض ذلك كله على الدول العربية. وبعد انتشار المشروع كثر الداعون إلى تبني الحرف اللاتيني, ولكن يظهر أن الذين تخطوا مجرد الدعوة إلى تقديم المقترحات بشأنها, بقوا قلة ضئيلة.

وأول ما يسترعي النظر في هذا الموضوع, هو أن الدعوة إلى الحرف اللاتيني, قد اقترنت باسم عبد العزيز فهمي, نظراً للمجهود الكبير الذي بذله فهمي, سواء في شرح طريقته وتعداد مزاياها, أم في الدفاع عنها وإغراء الناس بقبولها. واقتراح فهمي يقضي :

بالإبقاء على عشرة أحرف عربية, لا نظير لها في الأبجدية اللاتينية وهي : أ, ج, ح, خ, ص, ض, ط, ظ, ع, غ وبالاستعاضة عن الأحرف العربية : ب, ت, د, ر, ز, س, ف, ق, ك, ل, م, ن, هـ, و, ي بالأحرف اللاتينية : b, t, d, r, z, s, f, q,k, l, m, n, h, w, y.

بإدخال زوائد على بعض الحروف اللاتينية, كي تؤدي بمفردها نغمات الحروف العربية المقابلة. فقد استعمل فهمي لصوت الألف الحرف اللاتيني (a), ولحرف â), وفوقه علامة القربوسية (^) هكذا ( ), بدل شرطة واحدة. كما T) على أن يكون في رأسه شرطتان متصالبتان (t الحرف اللاتيني (الثاء,) مع شرطة أفقية فوقه (s), وللشين حرف (d), مع شرطة أفقية فوقه (d استعمل للذال الحرف ( ).s)

التي لا شبيه لنغمتها في العربية, وذلك لكتابة الأعلام x, e, v, p, j, g إضافة الأحرف اللاتينية الأجنبية والمصطلحات العلمية وغيرها مما نعربه.

(علامة u) علامة الفتحة, و(aوباعتماد الصوائت اللاتينية نيابة عن علامة الحركات. تكون ( ) علامة الكسرة. أما السكون فلا محل لوضع أي علامة لها. أما الشدة فيستغنى عنها iالضمة, و(بتكرار الحرف المشدد. وأما التنوين فيكفي لتشخيصه إتباع حرف الحركة بحرف نون صغيرة أمامه ومن أعلى, كما أجاز عبد العزيز فهمي أن يرسم التنوين بعلاماته العربية.

(بديلاً عنها, على أن توضع ,) (La Virgule بالاستعاضة عن همزة الوصل بالفاصلة الفرنسية (أعلى بقليل من سطر الكتابة.

عدم كتابة الهمزة إن وقعت في أول الكلمة, والاكتفاء بكتابة الألف أو حرف الحركة.

ولقد أحصى فهمي بطريقته هذه في الكتابة ست عشرة مزية, تتلخص في أنها :

تؤدي جميع نغمات الحروف العربية وبحرف واحد, لا يشترك غيره معه في أدائه.

لا يكثر فيها النقط ولا تختلف أعداده ولا وجهات مواضعه.

تحصر أداء الكلمة في وجه واحد لا يحتمل شكاً ولا إشراكاً.

تحافظ على جوهر هياكل الحروف.

تسهل التعلم والتعليم.

تجنب المعلمين خداع التلاميذ الذين يكتبون الكلمة بطريقتهم الخالية من الشكل, محتملة لأوجه مختلفة في الأداء.

تجنب القراء خداع الكتاب الذين يعيشون على حساب سلامة نية القراء.

تتيح للطفل تعلم القراءة والكتابة في زمن وجيز.

تساعد على التعلم, لأن الطفل متى تعود من صغره على صحة النطق بالألفاظ العربية, أصبحت هذه الصحة عادة له في كتابته وقراءته, وانمحت من خلايا مخه الأوضاع غير الصحيحة.

تساعد على تعلم أي لغة من اللغات التي تكتب بالحرف اللاتيني, وذلك بسبب توحيد أشكال الحروف بينها وبين العربية.

تسهل قراءة الأعلام الأجنبية المعربة والاصطلاحات العلمية.

تسهل على الأجانب تعلم العربية وتمنعهم من تشويه أعلامنا.

تحث الأجانب على اتخاذ حروفنا المفردة بدل مركباتهم المزجية وفي هذا تسهيل علينا لفهم ما يقصدون.

تسهل الطباعة تسهيلاً كلياً علينا وعلى غيرنا ممن يطبعون شيئاً من نصوصنا العربية.

تطمئن مؤلفي الكتب الأدبية وتؤمنهم مما يتقون من تصحيف الطابعين والقارئين, وتوفر عليهم ما نجده في كتبهم من قولهم تحديداً لنغمة الحروف وحركاتها: "بالنون", بالتاء المثناة, بالباء الموحدة ... إلخ.

5 – أضرار الدعوة إلى اللاتينية

إن تبني الحرف اللاتيني في الكتابة العربية, يلحق ضرراً بالغاً باللغة العربية وأهلها. وقبل تفصيل أضراره وعيوبه, لابد من الإشارة إلى أن بعض الذين هاجموا الدعوة إلى الحرف اللاتيني, وقعوا في خطأ منهجي. فهم, بدلاً من أن يظهروا عيوب الدعوة بحد ذاتها, راحوا يكشفون صعوبات الإملاء اللاتيني, مشددين على الإملاء الفرنسي والإنكليزي خاصة. ولا تشتمل طريقة فهمي في الكتابة على أي صعوبة من هذا النوع لأنها كتابة فونتيكية لا تاريخية. أما أضرار هذه الدعوة وعيوبها تتلخص فيما يلي :

تقطع الصلة بين مستقبل الأمة العربية وماضيها, إذ تحول عاجلاً أم آجلاً بين الأجيال القادمة والانتفاع من التراث العربي الذي هو جزء من كيان الأمة العربية وأحد مقوماتها الأساسية. وقطع الصلة بالتراث لا يؤدي إلى ضعف الوحدة العربية وحسب, بل يحرمنا أيضاً من مكتبة ثمينة ونفيسة تركها الأسلاف, فيها ثمرات عقولهم, ونتائج بحوثهم, وتواريخ أيامهم, ودواوين شعرائهم, وبنات أفكار كتابهم, ووصف أحوالهم. وربما يرى بعضهم أنه بالإمكان تلافي هذا العيب بترجمة الكتب العربية إلى الرسم الجديد. إلا أن الترجمة فات أوانها, إذ لو جاءت قبل النهضة العربية أيام العباسيين, لأمكن قبولها. أما اليوم فإن خزائن الدول العربية مجتمعة قد تعجز عن رصد الأموال اللازمة لنقل كل التراث إلى الخط اللاتيني, خاصة أنه قد طبع من الكتب العربية, بعد اقتراح فهمي, ما يفوق أضعاف ما كتب بالرسم العربي, منذ نشأة هذا الرسم حتى زمن اقتراحه.

تضطرنا إلى زيادة الحروف, حتى تبلغ ضعفها في كلمات كثيرة, فإذا أردنا أن نكتب الفعل (كتب) أي أن عدد Kataba مثلاً المكون من ثلاثة أحرف, بالرسم اللاتيني, يكون على هذه الصورة (الحروف يتضاعف فيصبح ستة. وهذه الزيادة في الحروف تؤدي بلا شك, إلى إسراف في الحبر والورق والوقت والمجهود ونفقات الطباعة.

تؤدي إلى زوال فنون الخط العربي وزخرفاته. ففي الخط العربي مزية قل أن توجد في خطوط الأمم الأخرى, وهي إمكانية زخرفته على وجوه عدة. ولقد استطاع الكاتبون المجوّدون والمزخرفون أن يستخرجوا منه أنماطاً زخرفية غاية في الإبداع.

تيسر القراءة دون الكتابة, مع أن الكتابة هي الأصل فيما يقرأ. ولا شك في أن الخطأ في النطق أهون ضرراً من الخطأ المكتوب, لأن كتابة الخطأ تحافظ على خطأ النطق فضلاً عن أنها تسجله وتبقيه. وهكذا فلابد في جميع الأحوال, من إتقان اللغة إتقاناً جيداً تنتفي معه حاجتنا إلى الحرف اللاتيني كي نقرأ قراءة صحيحة.

, iلا تعفينا البتة من النقط والشكل, وإنما تعود بنا إلى النقط في بعض الحروف (ج, خ, ض, ظ, غ,)) كما أنها لا تعفينا ,, والفاصلة الفرنسية (â,T,d,s) وإلى ما يشبه الشكل في بعض الحروف (j , aمن مشكلة الحروف المتشابهة الشكل, التي قد توقع في الالتباس (ج, ح, خ, ص, ض, ط, ظ, â ,d,d ,t ,t.(

. لا تساعد الأجانب على تعلم لغتنا, لأنهم سيواجهون في هذه الطريقة حروفاً عربية غريبة عليهم,) على غير ما ألفوهâ,T,dوحروفاً لاتينية معدلة مثل (

لا تنقص عدد أشكال الحروف في الآلة الكاتبة, بل تزيدها. ذلك أن عدد صور الحروف العربية أربعة وستون حرفاً في هذه الآلة. أما في طريقة فهمي, فإن هذا العدد يرتفع إلى السبعين, إذ أن عدد) وصغير Majusculeحروف هذه الطريقة خمسة وثلاثون, ولكل حرف منها شكلان : كبير ( )Minuscule.(

تشوه الكتابة بخلطها الحروف العربية بالحروف اللاتينية.

تضعنا أمام احتمال تبدل معنى اللفظة الواحدة, إذ لا تفرق بين الصوت الذي هو حركة, والإشباع الذي هو حرف علة, ومن ثم يصبح اللفظين كـ(رمى) و(رام) مثلاً صورة واحدة في كتابة "Rama."

قد تفسد الإيقاع الخاص بالقصيدة, فتؤدي بالتالي إلى فساد أوزان الشعر. وإن كان بعضهم يعتبر الكتابة عرضاً طارئاً, في اللغة, وأنها ليست من اللغة بل مجرد إناء لها, فلابد من الإشارة إلى أن تغيير هذا, وخاصة في اللغة العربية, يؤدي إلى المساس بالمحتوى نفسه.

قد تطرح باضطرارها على وضع أشكال لاتبينية جديدة لحروف عربية لا نجد لها نظائر في اللاتينية مشكلتين : أولاهما صعوبة القراءة في هذا الجيل على الأقل, وثانيتهما الفوضى في الكتابات المقترحة, ذلك أن هذه الطريقة وليدة اجتهاد شخصي, فهي بالتالي, مدعاة لاقتراحات عدة تطورها.

إنها لا تمنع من تعدد اللهجات, ومن اختلاف القراءات للكلمة الواحدة, فالحرف اللاتيني لم يحل دون تشعب اللغة اللاتينية إلى عدة لغات, كما أنه لم يمنع نشوء اللهجات المختلف في كل من هذه اللغات.

وهكذا نرى أن طريقة عبد العزيز فهمي في الكتابة تبقي على معظم عيوب الخط العربي, وهي, إن جاءت لتساهم بحل بعض مشاكل هذا الخط, فما برحت تطرح لنا مشاكل أكبر لعل من أهمها,

مشكلة قطع الصلة بين مستقبل الأمة العربية وماضيها. وقد تكون هذه المشكلة وحدها كافية لرفض أي دعوة إلى اللاتينية.

6 – بعض الاقتراحات للتخفيف من مشكلات الخط العربي

رفض اقتراح فهمي, لا يعني الدعوة إلى إقفال باب الاجتهاد في إصلاح الخط, على ما فيه من عيوب, أو المنع من استنباط خط بديل يزيل هذه العيوب دون أن يحرمنا الانتفاع بالتراث, ودون أن يوقعنا بمشكلات أعظم. وإلى أن نجد هذا الخط البديل, ندعو إلى الأمور التالية :

العناية بتعليم الخط في مدارسنا الابتدائية, عنايتنا بتعليم المواد التعليمية الأخرى, وتعويد الأطفال وتدريبهم على الكتابة الجميلة منذ الصغر.

إيلاء أمور اللغة مزيداً من الاهتمام, وتدريسها وفق أحدث الوسائل التربوية, لتمكين المتعلم من تخطي صعوبات القراءة.

ضبط الآيات القرآنية بالشكل الكامل في جميع مراحل التعليم.

التزام الشكل في الكتب المدرسية الابتدائية, إلا ما لا مجال لخطأ التلميذ فيه, حتى يرسخ في ذهنه نطق الكلمة الصحيح, ثم التخفيف من هذا الشكل في المرحلة الثانوية قدر الإمكان, إلا فيما يتوقع خطأ التلميذ فيه.

ضبط كل حرف من الكلمة يؤدي تغيير حركته إلى تغيير معناها.

استعمال الأرقام العربية (0, 1, 2, 3, 4, 5, ... ,0, 1, 2, 3, 4, ... إلخ) بدل الأرقام الهندية (٠, ١, ٢, ٣, ٤, ... إلخ) لنتخلص من التباس الرقم "2" بالرقم "3" والرقم صفر "0" بالنقطة, ولنقترب من التوحيد العالمي للأرقام.

استعمال الرمز, كأن نستعمل رمز "ص.ب." لصندوق البريد وتعميم هذه الاستعمال ليشمل الأسماء الدولية التي يستخدم الرمز في اللغات الأجنبية مثل "USA" و"URSS." وغيرهما.

المحاضرة العاشرة

العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية

اللغة وسيلة للتعبير عما يدور في خلجات النفس من أفكار، والإدراك الخارجي ، وهي خير أداة للتفاهم بين بني البشر ، وأفضل وسيلة للاتصال ونقل الآراء والأفكار بينهم . كما أنها كائن حي ينمو ويتطور ، وينتج عن هذا النمو والتطور ارتقاء لغوي تدريجي، يساير الارتقاء العقلي والحضاري، هذا الارتقاء اللغوي ناتج عن تطور ذاتي في اللغة [1] ، لأنها لم تحتفظ في تطورها وارتقائها بالأصل الذي وجدت به ، بل نجدها دائمة التفرع والتشعب إلى لهجات ولغات مختلفة ، كما أن هذا الارتقاء ناتج أيضاً عن تطور في أعضاء النطق الإنسانية إلى جانب الاحتكاك الحتمي بين اللغات المختلفة، وقد أدت هذه الأمور مجتمعة إلى ظهور أنماط متعددة في استعمال اللغة الواحدة، ولدى الفرد الواحد، وداخل المجتمع الواحد وهذه الأنماط تدور في فلك اللغة الأصل، تشابهها في كثير من الصفات والخصائص، وتبتعد عنها في صفات وخصائص أخرى. هذا ما جعل الفرد في المجتمع يعرف نوعين مختلفين للغته الأم : النوع الأول هو اللغة الأصل، العالية أو الراقية التي تستخدم في التعليم، وفي الكتابة وفي المعاملات الرسمية، وهي اللغة الفصيحة أو الرسمية . أما النوع الثاني : فهو الجانب المتطور للغة الذي يمثل البعد عن اللغة الأم، ويستخدمه أفراد المجتمع وطبقاته المختلفة في الاستعمال اليومي ، وهو ما يطلق عليه اسم اللغة العامية ، أو الدارجة، أو المحكية، أو اللهجة المحلية، وغير ذلك من الأسماء . فنحن هنا أمام نمطين أو نوعين مختلفين للغة واحدة. واحتكاك اللغة بغيرها من اللغات يؤثر عليها سلباً أو إيجاباً، ويفرض عليها تغيراً معنياً يقاس بمقدار ما اقتبست من خصائص، وما اكتسبت من صفات جديدة، وقد تسود في المجتمع لغتان مختلفتان لظروف سياسية ، أو اقتصادية ، أو قومية ، أو دينية ، أو غير ذلك ، وقد يتعلم الفرد لغة أو أكثر غير لغته الأم ، فيصبح عارفاً للغات ليست من أصل واحد ، فنحن هنا أمام ظاهرتين لغويتين مختلفتين : الأولى، معرفة لغتين من أصل واحد " اللغة الأم إلى جانب لهجة محلية " والثانية : معرفة لغتين مختلفتي الأصول كالعربية إلى جانب الإنجليزية مثلاً، وقد ترتب على معرفة اللغات بهذا الشكل اختلاف العلماء في تحديد مفهوم دقيق لكل ظاهرة من هاتين الظاهرتين وحديثاً عن الاختلاف في الاستعمال اللغوي داخل المجتمع أو لدى الفرد يقودنا إلى الحديث عن الثنائية اللغوية، والازدواجية اللغوية والتعددية اللغوية .

وثنائية اللغة. وقد أطلق على هذين التنوعين اللغويين، ازدواجية اللغة

gloss معناها مثنى أو ثنائي أو مضاعف، و Di يتكون من سابقة يونانية Diglossiaفمصطلح للحالة، فحاصل الترجمة : صفة أو حالة لغة مثناه أو مضاعفة iaومعناها لغة، ولاحقة معناها مثنى أو Bi يتكون من سابقة لاتينية Bilingualism(الازدواجية اللغوية) والمصطلح الدالة على السلوك المميز أو الحالة أو الصفة ، ism لغوي ، واللاحقة Lingualمضاعف و فحاصل الترجمة سلوك لغوي مثنى أو مضاعف (الثنائية اللغوية) فيظهر للوهلة الأولى أن المصطلحين يدلان على معنى واحد هو لغتان . إلا أن الحقيقة غير ذلك فالمصطلحان غير متطابقين ، بل يدل كل مصطلح منهما على معنى مغاير لما يدل عليه الآخر .**ملاحظة اي بسبب تداخل الحروف الانجليزية ماوضحت فاارجعوا للشرائح لفهمها صحيح**

وإذا حاولنا أن نحدد كل مصطلح من هذين المصطلحين وكيفية ظهوره ، وجدنا اختلافاً في تحديد كل منهما لدى علماء الغرب ، ترتب عليه خلط واضطراب لدى الباحثين العرب . فقد ظهر أول ما ظهر عند الفرنسيين على يد العالم وليم مارسيه الذي نحت هذا Diglossieمصطلح عام 1930م ، وعرفه بقوله : " هو التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ، ولغة La Diglossiaالاصطلاح عامية شائعة [2] " . ولما لم يكن في اللغة الإنجليزية كلمة لها مثل هذه الدلالة ، صيغ هذا المصطلح ليدل على نفس المعنى إلا أن " اللغات الأوربية الأخرى بوجه عام تستعمل كلمة Diglossia الثنائية اللغوية في نفس هذا المعنى الخاص أيضاً [3] Bilingualism عوضاً عن كلمة Diglossia إلى Diglossiaمصطلح Charles Ferguson" ، وفي عام 1959م نقل شارل فرغسون الإنجليزية ، ليدل به على شكلين مختلفين من الاستخدام للسان نفسه أي أنه تنافس بين تنوعين للسان واحد ، ووجود وضع مختلف لكل من هذين الشكلين اللغويين إذ يستخدم أحدهما في الحياة اليومية العامة، ويستخدم الآخر في الأمور الرسمية والدوائر الحكومية في المدارس والمحاكم والوزارات وغيرها، ويعتبر هو المعيار الرسمي والحقيقي، وقدم لهذه الظاهرة تعريفاً، قال فيه : " حالة لغوية ثابتة نسبياً ، يوجد فيها فضلاً عن اللهجات الأساسية التي ربما تضم نمطاً محدداً أو أنماطاً مختلفة باختلاف الأقاليم، نمط آخر في اللغة مختلف، عالي التصنيف " وفي غالب الأحيان أكثر تعقيداً من الناحية القواعدية " فوقي المكانة ، وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية لكنه لا يستعمل من قبل أي قطاع الجماعات المحلية للمخاطبة أو المحادثة العادية [4] "

وقصد به الازدواج اللغوي الذي يقوم Diglossiaهكذا وضع فرغسون الحدود العامة لمصطلح على تنوعات مختلفة للسان واحد، وقد أشار أندريه مارتينية إلى عدم وضوح هذه الظواهر اللغوية، فقال " إن المعيار الدولي في شأن التوسع المفرداتي انطلاقاً من الألسن الكلاسيكية للغرب قلما يكون بينا ، وهو غالباً اليوم الاستعمال من قبل الألسنيين أنفسهم [5] " فهذه الظواهر اللغوية غير واضحة المعالم عند علماء اللغة أنفسهم، لأنها ظواهر لا تهم اللغويين وحدهم ، بل يهتم بها كثير من العلماء على اختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم . ويتابع مارتينية حديثه عن المعيار الذي يمكن أن يحدد الجوانب العامة لهذه الظواهر فيقول : " إن النظرة إليه حظيت باحترام عندما افترضنا مقابل " المفردة الهلينية Bilingualisme " ثنائي اللسان Latinismeاللتينانية " النزعة اللاتينية وفي عام 1959م اقترح شارل فرغسون استعمال Diglossia الازدواجية اللسانية Hellenisme ، للإشارة إلى bilinguismeهذه المفردة (التي لها تماماً في اللسان الإغريقي قيمة ثنائي اللسان موقف معين حيث نسجل الاستعمال التنافسي لشكلين مختلفين لما نعتبره بمثابة اللسان الواحد . إن اختبار مفردة الازدواجية اللسانية في هذه الحال يُفسر على نحو جيد من قبل بعضهم ، الذي يعتبر يتماثل مع المفردة bilinguisme " في كلمة ثنائي اللسان Linguأن عنصر لسان " ألسونة . language أو الإنجليزية Langueالفرنسية لسان

اثنين للسان بعينه ، نفضل الكلام على varietiesوفي اللهجات المتنافسة متماثلة كتنوعين لا يفرض أبداً بالضرورة مفهوم اللسان الحقيقي لأي كان glossازدواجية لسانية ، لأن العنصر

فيما عدا الشخص اليوناني [6] " . ويحاول مارتينية في النص السابق أن يكون متفقاً مع ما ذهب إليه يدل في جذوره اللغوية على معنى الثنائية bilinguismeفرغسون ، فيلجأ إلى القول بأن مصطلح على الازدواج اللغوي، وقد وصل إلى هذه القناعة من العودة إلى جذر Diglossiaاللسانية ، ويدل " يتماثل مع lingnuاكل مصطلح من المصطلحين، إذ ذهب إلى القول بأن عنصر لسان " ألسونة لا يفرض مفهوم اللسان الحقيقي، glossومفردة لسان في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وأن عنصر بل يوحي بمعنى تنوع اللسان الواحد.

أن فرغسون يعتبر ازدواجية اللغة تكاملاً وظيفياً بين شكلين لغويين ، فيقول إن .Fasold Rويرى بين Complementarity Functional" فرغسون قصد أن ازدواجية اللغة هي تكامل وظيفي شكلين لغويين مرتبطين ارتباطاً أبعد من التقارب بين أساليب اللهجة الواحدة ، ولكنه في الوقت نفسه أقرب من التباين بين اللغات المختلفة [7] " . وكأنه يقصد بهذا الفهم لما قاله فرغسون ما يمكن أن يطلق عليه اسم اللغة الهجين التي هي مزيج لغوي خاص نشأ نتيجة للاحتكاك بين لغتين مختلفتين، ربما كانتا متساويتي المكانة والقوة ، ولا تظهر فيها خصائص إحدى اللغتين أكثر من الأخرى .

فيرى أن هذين المصطلحين " ثنائية اللغة وازدواجية اللغة " ليسا إلا .Fishman jأما ج . فيشمن وجهين لعملة واحدة ، فيقول " وثنائية اللغة صفة مميزة للتصرف اللغوي على المستوى الفردي ، أما ازدواجية اللغة ، فإنها خاصية من خصائص التنظيم اللغوي على مستوى المجتمع ثنائية اللغة هي سمة الاستخدام اللغوي من قبل الأفراد، بينما ازدواجية اللغة هي وصف لتخصيص المجتمع لوظائف معينة للغات أو لهجات مختلفة [8] ".

فالفرق بينهما في نظره ليس فرقاً جذرياً ، إنه فرق من ناحية الاستخدام فقط ، فالنمط اللغوي الذي يستخدمه الفرد هو الذي يطلق عليه اسم الثنائية اللغوية ، أما الازدواجية فهي صفة خاصة تطلق على تلك الوظائف التي فرضها المجتمع على استخدام مستويات لغوية محددة لأغراض لغوية واجتماعية محددة .

ونتيجة لتشابك هاتين الظاهرتين اللغويتين ذهب محمد الخولي إلى اعتبار وجود لهجتين إحداهما فصيحة والأخرى عامية في المجتمع نوعاً من الثنائية اللغوية ، سماها ثنائية رأسية ، فقال : " أما إذا كانت اللغتان لهجتين للغة واحدة ، كأن تكون لهجة عالية فصيحة ، ولهجة عامية محلية فتدعى [10] " ويوضح سبب هذه التسمية فيقول " وجاء مفهوم Vertical Bilingualismهذه ثنائية رأسية الرأسية من وجود لهجة عالية هي اللهجة الفصيحة ، وأخرى أقل شأناً أو علواً هي اللهجة العامية أو المحلية [11] " ويضرب مثلاً لذلك فيقول " مثال ذلك حال العرب مع اللهجة الفصيحة واللهجات العامية أو المحلية ، وتدعى هذه الحالة أيضاً الثنائية اللهجية [12] " ويحاول توضيح فكرته هذه في موضع آخر من كتابه فيقول : " ويجب ألا ننسى حالة شائعة لدينا جميعاً من الثنائية الرأسية التي التي يدعوها البعض ازدواجية اللغة أو الازدواجية bidialectalismيمكن أن ندعوها ثنائية لهجية وهي حالة استخدام الفرد للهجتين من لغة واحدة وبصورة تكاملية [13] " .diglossiaاللغوية

هكذا نجد أن هذين المصطلحين – كما يظهران في أقوال العلماء – غير واضحي الدلالة في أذهانهم، مما ترتب عليه عدم فهم أبعاد كل مصطلح منهما، وعدم التحديد الدقيق لمجالاته وخصائصه، وأدى بالتالي إلى لبس غير هين عند كثير من الدارسين.

هذا الخلط والاضطراب وعدم الفهم الدقيق انعكس سلباً على كتابات العلماء العرب من جراء ترجمة هذين المصطلحين، فمن ترجمهما عن الفرنسية خالف من ترجمهما عن اللغات الأوربية الأخرى ، كما أن كثرة الدراسات وتشعبها في هذا المجال زاد من سوء الفهم وعدم وضوح الرؤيا عند الباحثين العرب.

ويريد Bilingualism ويقصد به الثنائية اللغوية، ويستخدم diglossiaفنجد من يستخدم مصطلح ويقصد به الازدواجية، و diglossiaبه الازدواجية، ومن يعمل عكس ذلك ، فيستخدم ويريد به الثنائية . ظهر هذا واضحاً في الكتابات التي تناولت هذه الظواهر اللغوية، Bilingualism للدلالة على الازدواجية اللغوية و diglossiaإذ نجد أن علماءنا في المشرق العربي يستخدمون للدلالة الثنائية اللغوية ، وشاع لدى علمائنا في المغرب العربي عكس ذلك ، فهم Bilingualism الازدواجية اللغوية ، وهذا الاستخدام غير Bilingualism الثنائية اللغوية و diglossiaيعنون بـ مطرد إذ نجد من علماء المشرق من ساير المغاربة في استخدامه لهذين المصطلحين فذهب إلى القول بأن الازدواجية تكون بين عامية وفصحى لأنهما فصيلتان من لغة وكل لغة بشرية تنقسم إلى عامية وفصحى وعليه فإن الفارق بينهما هو فارق فرعي لا جذري . الثنائية الحقة هي التي تقوم بين لغتين مختلفتي الروح والعبقرية . بين الفرنسية والعربية . بين الألمانية والتركية . بين الصينية والروسية إلخ.

وهذا الفهم نجده عند اندريه مارتينية حيث يقول : " نميل إذن إلى أن نخصص تحت مفردة الازدواجية الألسنة موقفاً لغوياً اجتماعياً، حيث تستخدم بشكل تنافسي لهجتان لهما وضع اجتماعي – ثقافي مختلف : الأولى باعتبارها لغة محلية أي شكلاً لغوياً مكتسباً أولوياً ومستخدماً في الحياة اليومية، والأخرى لساناً يفرض استخدامه في بعض الظروف من قبل أولئك الذين يمسكون بزمام السلطة [21] " هكذا نجد أن تحديد الازدواج اللغوي يقوم على معيارين اثنين : تنافس بين نمطين عائدين لنفس اللغة، ووضع مختلف لهذين النمطين من حيث الوظيفة والمكانة، فالازدواج اللغوي يخصص وظيفة لكل من الفصحى والعامية، فتخصص الفصحى للاستخدام الرسمي، في الدوائر والمؤسسات الحكومية كالمدارس والجامعات والمحاكم والوزارات وغيرها ، وهي المناسبة الوحيدة لهذا الاستخدام ، وتكون العامية هي الأنسب للاستخدام اليومي بين عامة الناس .

ومن حيث المكانة فإن كثيراً من المتكلمين يرى ضرورة استعمال الفصحى عند الحديث في قضايا هامة كالخطب السياسية أو البيانات والمحاضرات والندوات والمؤتمرات ، في حين أنهم لا يجدون غضاضة من استخدام العامية في مواضع ومناسبات أخرى . وإذا حاولنا الوقوف على أسباب تنوع اللغة في الاستخدام لوجدنا أن هذه الأسباب تتمثل في الآتي :

التطور اللغوي في كل مستويات اللغة، المستوى الصوتي الذي يتمثل في انحراف بعض الأصوات عن مخارجها ومواضع نطقها، والمستوى الصرفي كظهور صيغ ومشتقات جديدة غير مقيسة ولا مسموعة عن العرب القدماء كصيغ الجمع في بعض اللهجات العربية، وصيغ التصغير وغيرها، كذلك المستوى النحوي وعدم مراعاة علامات الإعراب إن نطقت، وتركيب الجمل الذي يتم دون مراعاة للتركيب الصحيح، ثم المستوى الدلالي وما يطرأ على معاني الألفاظ والصيغ من تغير جراء أمور نفسية أو اجتماعية وغيرها، كل ذلك يؤدي إلى ظهور فروق في النطق بين المتكلمين للغة الواحدة، وقد لاحظ مؤرخو اللغات أن القبائل والجماعات والطوائف الدينية وأصحاب المهن والجماعات الخارجة على القانون وغيرها، كل مجموعة من هذه المجموعات تميل إلى إيجاد لغة خاصة بها يمتنع فهمها على المجموعات الأخرى، إنها أشبه ما تكون بالشفرة التي لا يستطيع أحد فك رموزها غير أصحابها.

كذلك فإن الفوارق الطبقية بين طبقات المجتمع لها دور في ظهور مثل هذه اللهجات، إذ تعمل كل طبقة على إيجاد لغة خاصة بها تميزها عن غيرها من الطبقات، فالطبقة الأرستقراطية لها لهجتها الخاصة، والطبقة الوسطى لها لهجتها ، كذلك تختص الطبقة الدنيا بلهجة معينة .

ويجب ألا يغيب عن بالنا دور **الاتصال اللساني** بين اللغات وما ينتج عنه من ظهور لغات أو لهجات جديدة خسرت شيئاً من خصائصها وصفاتها الأصلية ، وبدأت الابتعاد التدريجي عن اللغة الأم . كل ذلك يوصل إلى ظهور الازدواج اللغوي .

كما أن **اختلاف البيئات** داخل المجتمع الواحد له دور هام في ظهور الازدواجية اللغوية ، فأبناء الريف مثلاً يتحدثون بلهجة تختلف عن تلك التي يتحدث بها أبناء المدن ، فأفراد كل بيئة يتفقون على طريقة نطقية معينة يتعاملون بها في بيئتهم الخاصة. فلا تستطيع اللغة الأم أن تستمر في حياتها في كل البيئات وتحت كل الظروف دون تغير أو تطور. من هنا ندرك أن الازدواج اللغوي أمر حتمي موجود في كل اللغات، وليس خاصاً بلغة دون أخرى، إنه التطور اللغوي القسري، كما أنه امتداد لازدواجية العقل والحس عند البشر، ففي كل لغة لسان عامي وآخر فصيح .

بعد هذا العرض لأسباب ظهور الازدواجية اللغوية، نحاول تحديد ظهوره في اللغة العربية، بتحديد الزمن التي ظهرت فيه العامية في هذه اللغة، ثم بعد ذلك نستطيع القول إنه أصبحت هناك ازدواجية لغوية في العربية . وقد ذهب عدد من العلماء العرب [22] إلى القول بأن الازدواجية اللغوية ظهرت في اللغة العربية بعد الفتح العربي الإسلامي الذي نتج عنه دخول أمم وشعوب كثيرة إلى الإسلام ، وأدى ذلك إلى صراع بين العربية واللغات الأخرى، نتجت عنه هذه الازدواجية اللغوية .

وقد تابع ابن خلدون تدوين ملاحظاته حول الانحرافات التي أصابت العربية نتيجة الاتصال بغيرها من اللغات ، تلك الانحرافات التي أصبحت متداولة بين مختلف طبقات المجتمع الإسلامي آنذاك ومسموعة على معظم الألسنة، قال : " إنه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم ، وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعربي بها تعبير عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، ويسمع كيفيات العرب

أيضاً ، فاختلط عليه الأمر ، وأخذ من هذه وهذه ، فاستحدثت ملكة كانت ناقصة عن الأولى ، وهذا معنى فساد اللسان [26] " .

نتيجة لهذا الاتصال ، ظهرت أشكال تعبيرية وأسلوبية تخالف ما عند العرب من الأساليب والتعبيرات ، إنها أساليب وتعابير اقتبسها النشء الجديد من اللغات الأخرى ، إلى جانب أشكال تعبيرية وأسلوبية أخرى هي مزيج من أسلوب العربية وطرائقها في التعبير، وأساليب اللغات الأخرى وطرق تعبيرها، هذه الأشكال الأسلوبية أشبه ما تكون بما يعرف الآن باسم الهجين Pidgin وهي لغة تنشأ عن اتصال متحدثي لغتين مختلفتين ببعضهم، علماً أن كل طرف لا يتحدث لغة الآخر ، وهي نتيجة مبدئية للتفاعل بين الثقافات المختلفة ، ثم تظهر اللغة المولدة Creole بعد استقرار تلك اللهجة الهجين ، وتصبح لغة الاستعمال اليومي للناطقين بعد مرور جيل أو أكثر .

هذه الانحرافات التي ظهرت في العربية أبرزت ملامح العامية ومظاهرها وعملت على تأصيلها وهذه العامية قامت بتشكيل الازدواج اللغوي الذي يشترط لنشأته شروط معينة ، يقول فرغسون : " والمرجح أن الازدواج اللغوي ينشأ عندما تتوفر الشروط الثلاثة التالية في مجتمع بعينه :

المحاضرة الحادية عشر

الثنائية اللغوية

(1)

هذا المصطلح ترجمة للمصطلح الإنجليزي ظاهرة الثنائية اللغوية واختلفت تعريفاتهم لها , وكان مقدار إجادة اللغات هو المعيار الأساسي لتلك التعريفات فقد عرفها بلومفيلد Bloomfield بأنها امتلاك الفرد للحد الأدنى من إجادة الفرد التامة للغتين (1), وعرفها مكنمارا Macnamara فقد اتخذا في تعريف هذه Obler و أوبلر Albert مهارة لغوية واحدة في لغة ثانية(2) أما ألبرت الظاهرة موقفاً وسطاً, فذهبا إلى أنها الاستخدام المثالي للغتين أو أكثر(3) , ومنهم من يرى أن معرفة اللغة تبدأ من لحظة معرفة جملة فيها (4) هذه التعريفات تشير في مجملها إلى الثنائية اللغوية الفردية Individual Bilingualism أما محمد الخولي فقد عرفها بطريقة أكثر دقة وشمولية فقال : الثنائية اللغوية هي استعمال الفرد أو الجماعة للغتين بأية درجة من الإتقان , ولأية مهارة من مهارات اللغة , ولأي هدف من الأهداف (5)

أسباب نشأتها

وإذا أردنا تحديد منشأ هذه الظاهرة والأسباب التي أدت إلى ذلك , فإنها نشأت في ظل ظروف مختلفة أهمها :

الهجرة الجماعية :

تحدث لأسباب اقتصادية أو سياسية أو دينية أو اجتماعية وغيرها , فقد تهاجر أعداد كبيرة من البلاد أكثر غنى , بحثاً عن العمل , وهربا من الفقر والجوع والمرض, كما حصل في هجرة أعداد غفيرة من العمال من دول العالم الثالث إلى دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية . كما يؤدي الاضطهاد السياسي الذي يحدث في بعض المجتمعات إلى نزوح أعداد كبيرة من أبناء هذه المجتمعات إلى دول أخرى هرباً من القمع والاضطهاد, وبحثاً عن الأمن والسلامة كما حصل لعدد كبير من المواطنين الروس الذين تركوا بلادهم بعد ثورة 1917م . كما تحصل الهجرة نتيجة لما تلاقيه بعض الشعوب أو الأقليات من ممارسات سلبية ضد معتقداتها وأديانها فتجبر على ترك أوطانها والهجرة إلى بلاد أخرى صوناً لدماء أفرادها وحفظاً لمبادئهم ومعتقداتهم , كما حصل في هجرة أعداد كبيرة من أبناء الشعوب التي وقعت في إطار الاتحاد السوفيتي. ومن أسباب الهجرة كذلك مهنة التجارة التي تؤدي ممارستها إلى انتقال أعداد من أبناء هذا المجتمع أو ذاك إلى مجتمع آخر يختلف معه في اللغة وطرق العيش , وهذا بدوره يؤدي إلى اتصال لساني ظاهرة الثنائية اللغوية .

الغزو العسكري والاحتلال :

قد تغزو أمة أمة أخرى لسبب من الأسباب مما يترتب عليه انتشار اللغة الغازية التي تبدأ بمحاولة فرض هيمنتها وسلطانها على اللغة المغزوة التي تقاوم تلك الهيمنة وذلك السلطان بكل طاقاتها وإمكاناتها , ويبدأ صراع مرير بين اللغتين يؤدي في النهاية إلى انتصار إحداهما , أو إلى التهادن والتعايش داخل المجتمع , وهناك عدة عوامل تتحكم في هذا الأمر وتؤدي إلى إنجاح اللغة الغازية وإدامة انتشارها كطول مدة الاحتلال : فكلما طالت مدة هذا الاحتلال نجحت اللغة الغازية في الانتشار والديمومة .

وكالمصلحة : فإذا وجدت مصلحة للشعب المغزو من وجود الغازي طالت مدة الاحتلال , وكذلك مدى التفاعل بين الشعبين , فإذا قبل الشعب المغلوب هذا الأمر أو اقتنع به وبدأ يتعامل مع المحتل بطريقة إيجابية فإن أمد الاحتلال سيطول , وسينتج عن هذا الاحتلال اتصال لساني يؤدي إلى ظهور الثنائية اللغوية .

Annexationالإلحاق والضم

يحدث هذا عندما تقوم دولة بفرض سلطانها على دول أخرى , وفرض لغتها لغة رسمية لتلك الدول , كما حدث عندما قام الاتحاد السوفيتي بضم البلطيق (ليتوانيا , واستوانيا , ولاتفيا) إلى سلطانه , وفرض اللغة الروسية لغة رسمية لهذه الدول, مع بقاء لغاتها الأصلية لغات قومية تستخدم في الاتصال بين الأفراد وفي الأمور العامة. ويؤدي مثل هذا الضم إلى ظهور الثنائية اللغوية .

الحس القومي :

معظم دول العالم تضم قوميات وأعراقاً مختلفة , إحدى هذه القوميات تمثل الأكثرية أو الغالبية , وما عداها تمثل الأقليات , فإذا أثيرت النعرة القومية لسبب أو لآخر في مجتمع ما , فإن معنى ذلك بداية التمييز العنصري بين أفراد الشعب , وسيترتب على المناداة بالقومية أن تهب الأقليات للدفاع عن ذاتها وتعمل بكل طاقاتها على إحياء قومياتها مطالبة بالاعتراف بها كأجناس , وأول ما تطالب به الاعتراف بلغاتها القومية لغات رسمية في مناطقها , وستستجيب الحكومة المركزية في ذلك البلد لمطالب الأقليات وتعترف بلغاتها لغات رسمية كل في منطقته وذلك يعني اعترافا بالثنائية اللغوية .

المصاهرة والتزاوج :

التزاوج بين الأجناس وأبناء القوميات المختلفة سبب من أسباب ظهور الثنائية , لأن الأبناء سيتعلمون اللغة التي يسمعونها , فسيأخذون شيئاً من لغة الأم وشيئاً من لغة الأب , فهم بهذا Homeيمارسون الثنائية اللغوية , وهذه الثنائية المستخدمة في المنزل تسمى ثنائية منزلية أو بيتية Bilingualism.

العقيدة والدين :

إذا انتشرت عقيدة أو ديانة معينة في هذا البلد أو ذاك , فإنها ستحمل لغتها معها إلى ذلك البلد , وسيؤدي اعتناق تلك الديانة إلى انتشار لغتها في ذلك البلد , وقد حمل الدين الإسلامي اللغة العربية إلى البلدان التي فتحها المسلمون , وانتشرت العربية فيها , وصارعت لغاتها القومية وانتصرت على كثير منها حتى أصبحت العربية اللغة الأولى في تلك المناطق , وهذا الانتشار للعربية أدى إلى ظهور الثنائية اللغوية في تلك الأقاليم .

طرق اكتسابها :

كتسب الفرد هذه الثنائية بطرائق مختلفة خلال سنين عمره من خلال احتكاكه بمن يتحدثون لغة غير لغته الأصلية , وربما اكتسبها من المدرسة التي تعتمد لغة تعليم وخصائصه التي تميزه عن غيره ,وطرق اكتساب الثنائية اللغوية هي :

" ***<u>الطريق الأول</u>*** وهو أهم الطرق ويكمن أن تكون في اكتساب اللغة الثانية في مرحلة الطفولة سواء كان هذا الاكتساب متزامناً مع اكتساب اللغة الأصلية أو يفصل بينهما بعض الوقت ..

<u>الطريق الثاني</u> من طرق اكتساب الثنائية اللغوية يتمثل في حالة الطفل الذي ترعرع وهو يتحدث بلغة واحدة مع أسرته , ولكن عند دخوله المدرسة واجه لغة ثانية هي لغة التعليم , وقد تكون أيضاً لغة المجتمع الذي يعيش فيه . ومثل هذا الوضع يحدث كثيراً للأطفال الذين ينتمون إلى أقليات لغوية أو أسر مهاجرة من بلد له لغة مختلفة . والثنائية اللغوية المكتسبة بهذه الطريقة قد تكون عميقة نسبياً ولكن عدم التوازن سيكون ظاهرة واضحة بسبب اختلاف الأوضاع الاجتماعية واختلاف وظائف

كل من اللغتين , وسوف يستمر الطفل في استعماله اللغة الأصلية للأغراض اليومية والشخصية محتفظاً باللغة التي تعلمها في المدرسة للاتصالات الأكثر رسمية والوظائف الاجتماعية الأعلى.

الطريق الثالث من طرق اكتساب الثنائية اللغوية يكون من خلال اكتساب لغة ثانية بعد سن الطفولة عن طريق الاتصال الدائم والمباشر مع هذه اللغة في المجتمع الذي يتحدثها.

الطريق الرابع لاكتساب الثنائية ويعتبر عكس ما قبله وهو يتمثل في اكتساب اللغة عادة في اكتساب اللغات الأجنبية, وهي كمثيلتها السابقة, درجة الإتقان اللغوي فيها كقاعدة عامة محدود جداً .
والاختلاف بين الطريقتين يكمن في أن الأولى تتميز بطلاقة الحديث والكفاءة في الاتصال الشفوي , بينما تمتاز الثانية بالاهتمام بالبناء اللغوي وفهم المادة المكتوبة " (1)

أنواعها :

وتظهر هذه الثنائية في مجالات كثيرة من مجالات الحياة , وفي جوانب متعددة من جوانب المجتمع , مما يترتب عليه اختلاف أشكال هذه الثنائية باختلاف المجالات الاجتماعية التي تظهر فيها , وقد تحدث العلماء عن أنواع مختلفة من الثنائية اللغوية كانت محاورها في مجملها الفرد والمجتمع , والأسس التي يعتمد عليها في تحديد هذه الأشكال هي درجة الإتقان , والمستوى الذي تستخدم فيه هذه الثنائية وكذلك المكان , وتوزيع الاستخدام , وطريقة التعلم , والمهارات اللغوية والثقافية , والإنجاز اللغوي والتوقيت والتوازن والاختيار , فنتجت عن هذه الأمور أنواع متعددة من هذه الثنائية **أهمها:**

Individual Bilingualismالثنائية الفردية

يتعلق هذا النوع من الثنائية بالفرد بشكل خاص , فإذا كان مدار الحديث الفرد ولغتيه , فإن معنى ذلك , الحديث عن الثنائية اللغوية الفردية وفي مثل هذه الحالة تتم دراسة الثنائية اللغوية كظاهرة فردية , وتسمى بالفردية لأنها تختص بالفرد وتنسب إليه , وللفرد مع هذا النوع من الثنائية حالتان , إما أن يكون قد ملك ناصيتي اللغتين الأولى والثانية , ويستطيع أن يستخدم كلاً منهما بطلاقة ويسر , يسمع الحديث باللغة الأولى , ويجيب عنه بنفس اللغة , كما يسمع حديثاً باللغة الثانية , ويجيب عليه بنفس اللغة , وإما أن يكون غير قادر على ذلك , فهو يتقن اللغة الأولى أكثر من الثانية , فإذا حادثه شخص باللغة الثانية فإنه لا يستطيع أن يجيب على ما سمع بنفس اللغة , بل يقوم بترجمة ما سمع إلى لغته الأولى , ثم يجيب عنه باللغة الأولى ويقوم بترجمة هذه الإجابة إلى اللغة الثانية , لذا فقد " فرق الباحثون بين نوعين من الثنائية اللغوية : الثنائية اللغوية المركبة , والثنائية اللغوية المتلازمة – وقد لفت الانتباه إلى هذا الفرق أوسغود Osgood في عام 1965م بناء على الأفكار التي طرحها فاينرايش Weinnreich في عام 1963م

يمثل الفرق بين هذين النوعين بالآتي : الشخص الذي يستعمل الثنائية المتلازمة يستعمل في حقيقة الأمر نظامين لفظيين مستقلين , أي أنه يفهم الرسالة التي وصلته بلغة (أ) باللغة نفسها , ويستجيب باللغة نفسها , وكذلك يفهم الرسالة التي وصلته بلغة (ب) باللغة نفسها , ويستجيب باللغة نفسها. أما الشخص الذي يستعمل الثنائية اللغوية المركبة , فإن لديه نظاماً لفظياً راجحاً بلغة (أ) , بحيث عندما تصله الرسالة بلغة (أ) يفهمها ويستجيب باللغة نفسها , على عكس ما يحدث عندما تأتيه الرسالة بلغة (ب) , فهو يترجمها إلى لغة (أ) ليستطيع فهمها , ويستجيب بلغة (أ) ثم يترجم الاستجابة إلى لغة (ب) لتوصيلها " (1) إذن نحن أمام نوعين من الثنائية, إلا أن بعض العلماء لم يكن مقتنعاً بهذا التقسيم , واعتبر أن الثنائي هو الشخص الذي يتقن لغتين اتقاناً تاماً يستخدمهما بكل طلاقة دون تردد أو حاجة إلى الترجمة , أما إن لم يكن قادراً على استخدام اللغتين بنفس الدرجة من الاتقان ولابد له من الترجمة , فهو في هذه الحالة متعلم لغة وليس ثنائيا . يقول أحد العلماء : " أصبح هذا التفريق بين نوعين من ثنائية اللغة مشهوراً ومقبولاً لدى كثير من الباحثين , ولكنه أيضاً واجه انتقادات شديدة على اعتبار أن الشخص الذي يتصف بالثنائية المركبة للغة الذي لا يستطيع أن يفهم إلا بترجمتها إلى لغة ثانية هو في حقيقة الأمر ليس ثنائي اللغة على الإطلاق , بقدر ما هو متعلم للغة ثانية , وهذا عكس الشخص الذي يستعمل الثنائية المتلازمة و يعتبر بحق ثنائي اللغة " (2) فشرط الثنائية عند أصحاب هذا الرأي هو الإتقان التام لكلتا اللغتين واستخدامهما من نفس الفرد بنفس الدرجة وفي كل مهاراته اللغوية وأدواره الحياتية .

Societal Bilingualism الثنائية المجتمعية

هذا النوع من الثنائية يعني دراسة هذه الظاهرة كظاهرة عامة في المجتمع , وتتناول هذه الدراسة العوامل اللغوية المتصارعة داخل المجتمع , وتفاعلاتها وتأثيراتها في ذلك المجتمع , وهذا يتطلب دراسة اللغات المستخدمة في هذا المجتمع , فتدرس اللغة الأكثرية , ولغة الأقلية . والغرض من كل هذه الدراسات وضع سياسة لغوية ناجحة في التعليم , وفي كل وسائل الإعلام , من صحافة وإذاعة وتلفاز . وهذه الثنائية تعني أن هناك لغتين مستخدمتين في مجتمع ما , كما أنها لا تعني ضرورة استخدام كل فرد من أفراد المجتمع للغتين .

Horizontal Bilingualism الثنائية الأفقية

إذا استخدم أفراد مجتمع ما لغتين مختلفتين بطريقة متكافئة , وبنفس المكانة الاجتماعية , وعلى كل المستويات الرسمية والشعبية والتعليمية , فهذا يعني وجود ثنائية لغوية أفقية في ذلك المجتمع . وقد جاءت هذه التسمية نتيجة لتساوي اللغتين في المكانة , وتناظرهما في الاستخدام . أما إذا كانت اللغتان لهجتين للغة واحدة , إحداهما اللغة الفصحى أو العالية وهي التي تتمتع بمكانة عالية وتستخدم في مستويات اجتماعية معينة وثانيتها اللهجة العامية أو الدارجة وهي أقل شأناً من سابقتها وتستخدم في الحياة العامة ,ولا ترقى إلى المستويات الرسمية أو الثقافية , في مثل هذه الحال يطلق , كما يطلق عليها اسم الثنائية **Vertical Bilingualism** على الثنائية اللغوية اسم **الثنائية الرأسية** اللهجية , وتعرف كذلك بالازدواجية اللغوية

وقد توجد ثنائية من نوع آخر تجمع بين لغة فصيحة ولهجة عامية من لغة أخرى كما هو الحال مع سكان لويزيانا الأمريكية حيث توجد اللغة الإنجليزية إلى جانب المحلية الفرنسية وهذا النوع من الثنائية يطلق علية اسم **الثنائية القطرية** **Diagonal Bilingualism .**

ولدرجة الإتقان دور في تفرع الثنائية اللغوية , إذ أن معرفة اللغة تبدأ بمعرفة أول جملة من جملها , وتتدرج صعوداً إلى درجة الإتقان , فالإتقان إذاً عامل هام في الثنائية اللغوية , فعندما يتقن الفرد لغته الأولى إتقاناً تاماً , ثم يتقن لغة ثانية إتقاناً تاماً أيضاً , فإن هذا يعني أن الفرد ثنائي مثالي , وهذه الثنائية **Ideal Bilingualism**, ويدعى هذا النوع من الثنائية , **الثنائية اللغوية المثالية** تعني إتقاناً تاماً للغتين معاً . وإذا تحدث الثنائي المثالي أو كتب بأي لغة من لغتيه فإننا لا نستطيع أن نلمح أثراً لإحداهما على الأخرى , وهذا الثنائي المثالي يتقن جميع المهارات اللغوية للغتيه , ويمكنه استخدام لغتيه في جميع الظروف ولجميع الأغراض . وفي الحقيقة أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن هذا النوع من الثنائية افتراضي ممكن الوقوع ولكنه نادر جداً , " علينا أن لا نتعب أبداً من ترداد أن فكرة التملك التام للسان ما لا معنى لها أبداً " (1) .

فليس من الممكن أن تتساوى مهارات شخص ما في لغتين تساوياً تاماً , ففي الغالب تتفوق لغة على أخرى , كما أنه من النادر أن يتقن شخص ما لغتين بنفس الدرجة من الإتقان في كل المناسبات وتحت كل الظروف ومن أجل كل الأهداف " إن الهجرة من لغة أم إلى لغة أم لا تعني أن الإنسان قادر على أن يتقن لغتي أم أو أكثر في آن واحد للإنسان قدرة مطلقة فور ولادته على أن يتعلم أي لسان يفرض عليه , وأن يترك فيما بعد هذه اللغة في سبيل غيرها إذا استطاع ذلك . إن الإنسان لا يجيد الإجادة الكاملة إلا لغة أم واحدة . إذا هجرها ضعف زخمه فيها وتحولت طاقته إلى اللغة الثانية اللغات الأخرى التي يتكلمها الإنسان " (1) ,

معروف أن اللغة الأولى مكتسبة يكتسبها الفرد من الوسط الاجتماعي المحيط به , وهو اكتساب طبيعي للغة , أما اللغة الثانية فإن اكتسابها يختلف عن اكتساب اللغة الأولى , فبعض الناس يكتسبها بطريقة طبيعية من وسطه الاجتماعي وبيئته التي يعيش فيها دون حاجة إلى تعلم رسمي, وهذه والبعض الآخر يكتسب هذه اللغة عن Natural Bilingualismالحالة تعرف باسم الثنائية الطبيعية Artificial Bilingualismطريق التعليم المدرسي ويطلق على هذه الحالة الثنائية الاصطناعية والحقيقة أن تعلم اللغة الثانية بالطريقة الطبيعية من المجتمع أفضل بكثير من تعلمها بالطريقة الرسمية.

هذه هي أهم أنواع الثنائية اللغوية الفردية , أما الثنائية اللغوية في المجتمع (الثنائية المجتمعية) فتظهر بصورة مخالفة لها عند الفرد . فالمجتمع الذي توجد فيه أقلية إلى جانب أكثرية يختلف فيه الوضع , فالأقلية تكتسب لغتها الأولى , ثم تتعلم اللغة الثانية (لغة الأكثرية) أما الأكثرية فلا تعرف سوى لغتها ولا تهتم بلغة غيرها , فيكون في المجتمع جماعتان , جماعة تعرف لغتين (لغة الأقلية ولغة الأكثرية), وجماعة تعرف لغة واحدة فقط هي لغة الأكثرية , فطوائف هذا المجتمع لا تتبادل معرفة اللغات , فالثنائية هنا ثنائية غير تبادلية Non-reciprocal Bilingualism .

أما إذا كان في المجتمع فئتان متساويتان في المكانة والأهمية , فإن لغتيهما تتساويان أيضاً في المكانة والأهمية , ويطلق على هذا النوع من الثنائية ثنائية تبادلية Reciprocal Bilingualism ويلعب الوئام والانسجام بين أفراد هذا المجتمع دوراً هاماً في ظهور هذا النوع من الثنائية . وتبدو , الثنائية اللغوية في مثل هذا المجتمع ظاهرة اجتماعية تقرها الأعراف , وهي مقبولة لكل أفراد المجتمع وعلى كل المستويات ,

ويترتب على هذا الفهم , وهذه القناعة لدى الأفراد تعايش لغوي بين اللغتين , وهذا يدعو إلى تدعيم الثنائية ، وإذا حدث عكس ذلك تصبح **الثنائية غير مستقرة** ويترتب على عدم الاستقرار هذا زيادة في عدد ثنائي اللغة بالنسبة لأحادييها , وينتج عن هذا الازدياد ظهور ثنائية جديدة تعرف **بالثنائية المتزايدة** Progressive Bilingualism سببها ازدياد عدد المهاجرين أو عدد الوافدين إلى هذا البلد , وقد تظهر صورة أخرى بسبب عدم الاستقرار تنتج عن تناقص عدد الثنائي اللغة وتسمى هذه الحالة **الثنائية اللغوية المتناقصة** Regressive Bilingualism , هذه أهم مظاهر الثنائية عند الفرد وفي المجتمع .

المحاضرة الثانية عشر

الثنائية اللغوية

(2)

أهم مظاهر الثنائية على الفرد والمجتمع :

تصاحب الثنائية الفرد في كل مراحل حياته وتلازمه في كل أعماله , وتظهر واضحة في سلوكه وانفعالاته , فهي تؤثر تأثيراً كبيراً عليه, فيظهر هذا الأثر في شخصيته , يقول ولهم فون هومبولت Wolhelm Von Humblot : " إن اللغة تشكل الشخصية " (1) فالثنائية تؤثر سلبا في شخصية الفرد , وإذا أحس هذا الفرد بنقص ما ضمن الجماعة اللغوية التي يعيش معها , حاول تعويض ذلك النقص بأي طريقة كانت , فيلجأ إلى استخدام لغة أخرى ظناً منه أن ذلك يؤدي إلى رفع مكانته بين جماعته , ولا يقتصر مثل هذا السلوك على الأفراد بل تلجأ جماعة لغوية إلى مثل هذا السلوك " فبعض الجماعات تميل نحو استخدام اللغة وسيلة لرفع مكانتها الاجتماعية , ولتدعيم احترامها لذلتها , رغم أنه من الواضح أن مثل هذه الجماعات لا تتمتع بهذه المكانة " (2). وكذلك إذا شعر شخص بأنه أقل مكانة وعلماً وأحط وضعاً اجتماعياً من غيره داخل مجتمعه , حاول أن يتخلص مما يشعر به " فيختار لغة ما بعينها للتحدث بها من أجل أن يرفع مكانته لدى المستمعين , وخاصة عندما تكون هذه اللغة مرموقة اجتماعياً أو علمياً ". (3)

ولعل هذا هو السبب في هجرة كثير من العقول العربية التي درست خارج الوطن العربي فأتقنت لغة ثانية إلى جانب لغتها العربية و تثقفت بثقافات تلك الأمم , مما ترتب عليه انتماؤها لتلك الأمم وضعف انتمائها وولائها لكل ما هو عربي أو له صلة بالعروبة , هؤلاء المثقفون المتبرمون دائماً المشككون في قدرات هذه الأمة , الساخطون على الحياة العربية بمجملها وعلى الموروث الثقافي والاجتماعي لهذه الأمة .

سيترتب على هذه الثنائية اللغوية ثنائية ثقافية , يعيش صاحبها في صراع نفسي قاس , ناتج عن اضطراب القيم والتقاليد والعادات والمعتقدات , فلا يستطيع تحديد ما هو مباح وما هو ممنوع , ما هو مقبول لدى الجمهور وما هو غير مقبول , وما يحمد على فعله وما يذم عليه وهكذا , يعيش بمعيارين لا يستطيع تحديد أيهما يصلح هناك , إنه يعيش ثقافة مضطربة غير واضحة الملامح والأبعاد , إنها مزيج غامض من الأفكار والمعتقدات تخلق منه شخصاً بلا هوية ثقافية , هذا ما يجعله غير قادر على تحديد انتمائه الثقافي لأنه يتبنى مزيجاً غامضاً من ثقافة (1) وثقافة (2) فتراه تارة يميل إلى ثقافة (1) وتارة يميل إلى ثقافة (2) وتدعى هذه الحالة حالة الصراع الثقافي

إن مخالطة الشعوب الأخرى سبب هام في ظهور الثنائية كما أسلفنا , فكلما زاد اهتمام شعب من الشعوب بأمة أخرى زاد اهتمامه بلغتها واستخدامه لتلك اللغة , وفي المقابل يقل اهتمامه بلغته ويبتعد شيئاً فشيئاً عنها " لأن البعد عن اللسان إنما هو بمخالطة العجمة فمن خالط العجم أكثر من لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد , لأن الملكة إنما تحصل بالتعلم , وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب , ومن الملكة الثانية التي للعجم , فعلى قدر ما يسمعونه من العجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى "(1) .

إن أهم أسباب الثنائية اللغوية فقدان الثقة في الذات أو في المجتمع , فعندما يشعر الفرد بالانحطاط الاجتماعي ويحس أنه من طبقة اجتماعية أقل من غيرها من طبقات المجتمع , أو يشعر أنه يتحدث لغة لا تحظى باحترام الطبقات الاجتماعية الأخرى , أو أنها دون غيرها من لغات الأمم الأخرى , كما أنها غير مرموقة ولا تصلح لمواكبة العصر , وهذا يعني أن ذلك الفرد يخالف المألوف ويتجه في نهجه إلى غير المعروف في هذا الشأن , إذ "يرى علماء النفس الاجتماعي إن الناس يميلون إلى الاعتقاد بأن الجماعة التي ينتمون إليها أفضل من مثيلاتها من الجماعات " (1) فإذا استقر هذا الشعور لديه فإنه ينزع على تعلم لغة أخرى من أجل استخدامها في حياته ظناً منه أن تلك اللغة التي اختارها سترفع مكانته الاجتماعية , هذا الشخص يرى نفسه ضعيفاً غير قادر على الحياة مع جماعته اللغوية , لأنه يدرك أنه لا يحظى بأي احترام عندهم , فيبدون في نظره منحطين أو ليسوا أهلا للحياة , وعاجزين عن مجاراة الآخرين حضارياً وثقافياً, لأن "الجزء الأساس من نظرة الفرد إلى ذاته مشتقة من نظرته إلى الجماعة أو الجماعات الاجتماعية التي ينتمي إليها , واحترامه لذاته يعتمد أساساً على احترامه للجماعة ككل " (2) .

إن كثيرا من أبناء أمتنا العربية يعيشون ظاهرة اللا أمان اللغوي السابقة الذكر , ويرون في لغتنا العربية أداة تخلف وانحطاط , ويرونها غير قادرة على مواكبة علوم العصر وفنونه , فيعملون على

التخلص من العروبة ومن كل ما يربطهم بها , فيلجؤون إلى استخدام اللغات الأجنبية في أحاديثهم , أو في بعض أحاديثهم , لشعورهم بأنهم أقل علماً وحضارة من غيرهم , وأنهم غير مقبولين عند أفراد مجتمعهم , فيظنون أن معرفة اللغة الأجنبية تجعلهم متميزين في مجتمعهم , وترفع مكانتهم عند أهلها , كما تجعلهم الطبقة المثقفة والصفوة المتميزة التي يحلمون في الوصول إليها .

الآثار السلبية للازدواجية والثنائية

يتضح مما سبق أن لهاتين الظاهرتين اللغويتين (الازدواجية والثنائية)آثاراً سلبية كثيرة تعم أرجاء المجتمع وجوانب الحياة المختلفة , وشخصية الفرد وحياته.

فالازدواجية اللغوية رمز للتفرقة والتباعد بين أفراد المجتمع الذين يشترط أن يسود بينهم الوئام والاتحاد والتعاضد , فهي تعمل على تمزيق المجتمع إلى فئات متصارعة لا يربط بينها رباط اللغة المقدس , فالازدواجية إذن عنوان الصراع الاجتماعي داخل المجتمع كما أنها معول هدم لمنجزات الأمة وأداة لتفتيت جهودها وتبديد طاقاتها كما أنها تقف عائقاً للفكر والإبداع إلى جانب إعاقتها للتطورات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية .

ويظهر تأثيرها السلبي على شخصية الطفل إذ تخلق منه إنساناً متردداً , لا يستطيع تحديد ما يريد وغير قادر على اتخاذ القرار فهي تعمل على قتل كل إبداع لدى الأفراد , لأن الإبداع لا يتأتى إلا لمن أتقن لغته الأم.

كما أن الازدواجية عدو لدود للغة الفصحى , فهي تعيق تعلمها لدى الناشئة لأنهم تعلموا العامية في بداية الأمر , مما يجعلهم يجدون في الفصحى لغة أجنبية غربية عنهم غير ما ألفوه , لذا نجدهم يعزفون عن تعلمها , مما يترتب عليه ضعف المستوى اللغوي لدى الطلاب والدارسين .

إنها تحول دون انتشار العربية الفصحى خارج حدود الوطن العربي , وهو الأمر الذي يطمح كل عربي مخلص إليه, هذه الازدواجية خنق للفصحى وتكبيل لها في كل المجالات .

أما الثنائية اللغوية فهي أشد عداوة وخطراً من الازدواجية اللغوية , لأن ضررها يبدو واضحاً في الفرد والمجتمع , فهي تؤثر سلباً في شخصية الفرد , فيظهر عليه عدم الاستقرار النفسي , كما يظهر في سلوكه الاضطراب وعدم الرضا عن كل ما حوله , ويغلب على شخصيته التردد والقلق وعدم الثقة , فيجد نفسه إنساناً أقل مقدرة على الاستيعاب , مما يترتب عليه ضعف في الذكاء , وعدم القدرة على الإنتاج العلمي والإبداع الفكري , كما أن انتماءه الثقافي يكون لغير ثقافته الأم , إنه انتماء لثقافة الأمة التي تعلم لغتها على حساب لغته القومية,

إن الثنائية اللغوية هي السبب الأول في هدم العربية الفصحى , لأن الإنسان مهما بلغ من المهارة لا يمكنه إتقان لغتين إتقاناً تاماً فإذا كان هدفه إتقان اللغة الأجنبية لأمور نفسية أو اجتماعية , فإن قناعته هذه ستعمل على إهمال الفصحى وبالتالي هدمها نهائياً أما إذا كان هدفه علمي فسيكون

عكس ذلك حيث سيضيف ثنائي اللغة فكرا جديدا إلى لغته الأم وخاصة عن طريق الترجمة لأهداف علمية.

من هنا نقول إن العربية الفصحى تعيش الآن حصاراً قوياً , فهي مقبوضة بين فكي كماشة , لا تستطيع إفلاتاً منهما , إنها محاصرة من قبل اللغات الأجنبية التي هي لغات الثقافة والعلوم والتقنية في هذا العصر , هذه اللغات تضغط على الفصحى وتصارعها داخل المؤسسات التعليمية المختلفة من مدارس ومعاهد وجامعات التي تمكن اللغات الأجنبية من الانتصار على الفصحى , وذلك بالسماح لهذه اللغات بمزاحمة الفصحى داخلها , كما أن هذه المؤسسات تتيح لأطفال الأمة تعلم هذه اللغات مما يترتب عليه إقصاء الفصحى عن مكانتها الأولى , كما تسهم اللهجات المحلية أو العامية إلى جانب اللغات الأجنبية في محاصرة العربية الفصحى , فهي تصارع الفصحى وتقارعها خارج تلك المؤسسات , إنها تصارعها في الحياة العامة للشعب العربي , في البيت وفي العمل وفي الحقل وفي كل مكان .

فإذا كنا نود أن تبقى العربية الفصحى هي الرباط الأقوى الذي يجمع شعوب أمتنا العربية فإنه يجب على أصحاب القرار في الأمة العربية أن يدافعوا عن لغتهم الفصحى حفاظاً على هويتهم وقوميتهم ووحدتهم , لأن اللغة هي الرباط القوي الذي يجمع بين أفراد الأمة فيجب عليهم أن يعملوا على إحياء قناعات أبناء الأمة بأهمية اللغة العربية الفصيحة وبقدرتها على التعبير عن كل متطلبات العصر , وقدرتها على استيعاب مصطلحات العلوم والثقافة والفنون, وأن يعملوا على إقناعهم بأن اللغة الفصحى هي ذاتنا, هي الرباط المقدس الوثيق الذي يربط بين أبناء أمتنا , إنها وطننا الروحي الذي تكمن فيه عزتنا ومجدنا بل وكينونتنا , الذي يجب علينا الدفاع عنه والمحافظة على بقائه في أحسن صورة , كما يجب أن يسخروا كل وسائل الإعلام المختلفة لتوعية المواطنين بالأخطار المحدقة بلغتهم , وأن يبينوا لهم ما يجب عليهم القيام به من أجل الدفاع عنها , وعليهم بالعمل الجاد من أجل إيجاد المناخ المناسب لتحقيق هذا الغرض , وأن يشنوا حرباً لا هوادة فيها ضد أولئك المروجين للعامية وغيرها من الدعوات الهدامة التي تدعو للنيل من الفصحى ومكانتها , وتشكك في مقدرتها على مواكبة العلوم والفنون وفي صلاحيتها لهذا العصر.

كما يجب عليهم أن لا يقدموا لأطفالهم في سنين حياتهم الأولى لغات أجنبية إلا بعد أن يتقنوا لغتهم الأم التي يشترط لإتقانها عدم تعلم لغات أخرى , ويجب ألا يفهم هنا أننا نحرم تعلم اللغات الأجنبية , بل على العكس من ذلك فنحن من دعاة تعلم اللغات الأجنبية لقناعتنا بأهمية معرفة اللغات , وتحقيقاً لما أمرنا به ديننا الحنيف على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ يقول: "من تعلم لغة قوم أمن مكرهم " , لكن يجب أن يكون تعلم اللغات الأجنبية مقنناً ولا يسمح به للأطفال دون سن العاشرة إلى الثانية عشرة كما أوصت بذلك الهيئات التعليمية والتربوية التابعة للأمم المتحدة .

المحاضرة الثالثة عشر

التعريب

ماهيته, أهميته, معوقات تحقيقه

(1)

اللغة كائن حي ينمو ويتطور ويرتقي , وظاهرة اقتراض الألفاظ من أهم الوسائل التي تعتمد عليها اللغة في تطورها وارتقائها , وهي مطردة في كل لغات البشر قديمها وحديثها , وهي ما أطلق عليها العرب " التعريب " والاقتراض بين اللغات سنة حتمية لابد منها , وأمر يقيني لا مفر منه , ولابد من التأثر والتأثير والأخذ والعطاء بين اللغات , فلا يمكن لأي لغة أن تمتنع عن ذلك وتعيش في عزلة تامة عن غيرها , لابد لها أن تحتك بغيرها من اللغات , وإذا حصل هذا الاحتكاك وهو أمر لابد منه ظهر التأثر والتأثير واضحاً تماماً.

إن التعريب قضية هامة , لأنه رافد من روافد اللغة العربية , يسهم في إثرائها من أجل مسايرة الركب الحضاري العالمي , إضافة إلى أنه قد يكون منفذاً للعلماء والباحثين حين يستعصي عليهم ترجمة معنى جديد في أبحاثهم ومؤلفاتهم , وحين يستغلق باب التعبير عن بعض المخترعات والمستجدات التي لا وجود لها في مجتمعنا . كما أن له مساساً كبيراً بحياتنا الاجتماعية وصلة وثيقة بمستجدات العصر العلمية والتقنية التي نحتاج إليها .

وقد شغلت قضية التعريب هذه علماءنا القدماء فحددوا مفهومها ووضحوا الحدود التي يجب الالتزام بها عند التعامل مع هذه القضية , وأفادوا منها في التعبير عما يجد لهم من مسميات فحفظوا اللغة من الجمود والضياع , وتمكنت العربية من التعبير عن كافة العلوم والفنون , وصلحت لأن تكون لغة علمية عالمية أسهمت بدور هام في الحضارة العالمية .

ما التعريب؟

التعريب لغة :الإبانة والإفصاح . جاء في لسان العرب : الإعراب والتعريب معناهما واحد , وهو الإبانة , يقال :أعرب عن لسانه وعرب أي : أبان وأفصح وأعرب عن الرجل بين عنه , وعرب عنه تكلم بحجته , وعربه علمه العربية .

التعريب اصطلاحاً : تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها , تقول :عربته وأعربته . وهو نقل لفظ من الأعجمية إلى العربية , والمشهور فيه التعريب , وسماه سيبويه وغيره إعراباً.

عرف العرب التعريب منذ العصر الجاهلي , وأفادوا منه كثيراً في تعاملهم مع الألفاظ التي وفدت إليهم من لغات الأمم التي احتكوا بها ولم يكن بإمكانهم تجاهل هذه الألفاظ أو طردها من لغتهم والاستغناء عنها لأنها تعبر عن حاجات جدت لهم , فكان لزاماً عليهم أن يقبلوها في لغتهم .

ونهجوا في تعريبهم لتلك الألفاظ نهجاً معيناً , إذ كانوا يخضعونها لعمليات لغوية مناسبة كالزيادة أو الحذف أو التغيير في الحروف أو الحركات , حتى تتلاءم مع لغتهم , ويسهل عليهم استعمالها والنطق بها نطقاً صحيحاً يتناسب وطبيعة العربية , وهذا ما أشار إليه الجواليقي بقوله :"اعلم أنهم كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها , فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً وربما أبدلوا ما بعد مخرجه أيضاً. فالقدماء فهموا من التعريب نقل اللفظة الأعجمية إلى العربية مع إجراء بعض التعديلات رأوا ضرورتها لتتوافق هذه اللفظية مع القواعد الصوتية والصرفية والنحوية في اللغة العربية لأنها "لغة إذا دخلتها كلمة أجنبية عنها , قلق موضعها , حتى تأخذ وزن كلمات اللغة وهيئة حركاتها , لتشاكلها وتماثلها وتألف معها , لذلك نراهم يشذبون الكلمات الأعجمية الطارئة التي لم تأت على أوزان العرب , بالحذف والإبدال حتى تلائم الأسلوب العربي ".

ويمكن القول أن التعريب عند القدماء كان محصوراً في الألفاظ من حيث الشكل والمبنى , فقد كان جل همهم منصباً على الأصوات , وهذا عمل هام وخطوة جادة على طريق التعريب , إذ أن تعريب المادة الصوتية من أهم مراحل تعريب الألفاظ , حيث أن ذلك يبقى للغة أصواتها الأصلية دون أن يظهر فيها ما قد يشوه طبيعتها الصوتية , فتبقى بوجهها المألوف وطبيعتها المتعارف عليها , بل إن تعريب الألفاظ لن يكون عسيراً إذا تم تعريب الأصوات . وقد أشار صبحي الصالح إلى هذا بقوله :"والعربية – على اتساع مدرجها الصوتي – ازدادت سعة على سعة يوم أدخلت بين حروفها الهجائية أصواتاً تقاربها مخرجاً أو صفة , إذ عربت هذه الألفاظ الدخيلة , وحددت لها مواقعها من جهاز النطق , فلم يستعص على ألسنة العامة فضلاً عن الخاصة , فقطع بذلك الشوط الأول من التعريب : ألا وهو تعريب المادة الصوتية , وتطويعها لأصوات العربية . ولا ريب في أن هذا الشوط من تعريب الأصوات هو أهم الأشواط , فمن بعده لن يكون عسيراً أن تعرب الكلمات الدالة على مفهوم حضاري معين ".

ولم تقف عملية التعريب عند هذا الحد , بل امتدت لتشمل تلك المرحلة من الترجمة , التي ترجمت فيها علوم الأمم الأخرى وفنونها , وكانت اللبنة الأولى في بناء الحياة العلمية العربية.

ويمكن القول أن عملية التعريب عند القدماء نجحت نجاحاً باهراً , وزودت اللغة العربية بكل ما احتاجت إليه من الألفاظ والمصطلحات , وقد استوعب العرب هذا الأمر وهضموه وتمثلوه فأصبحت لغتهم بذلك لغة العلم والحضارة في العالم أجمع.

ومن أهم أسباب نجاح التعريب في ذلك الوقت اعتزاز العرب بلغتهم التي هي لغة القرآن الكريم , فأيقنوا أن الحفاظ عليها والعمل على تطويرها ونشرها أمر هام, إضافة إلى ذلك فقد توفرت للعلماء كل وسائل التعريب , فتوفرت لهم المادة العلمية من الكتب والمخطوطات التي حرص الخلفاء والأمراء على توفيرها , وأغدقوا الأموال من أجل تحقيق هذه الغاية , ونتج عن ذلك إقبال العلماء والأطباء والفلاسفة والمترجمين على العمل في هذا المجال من أجل الإسهام في تنمية العربية والنهوض بها.

أما في العصر الحديث فقد اختلف الحال, واختلفت المفاهيم في هذه القضية , فبعد الاستقلال وجد العرب أنفسهم متخلفين عن ركب الحضارة العالمي , فهب المخلصون يتلمسون سبل الارتقاء بالأمة , فعملوا على النهوض بالعربية إيماناً منهم بأن اللغة هي أساس كل تطور ونهضة , ولمسوا أنهم في مساس الحاجة إلى مواكبة الركب الحضاري , وأن لغتهم تفتقر افتقاراً شديداً إلى المصطلحات العلمية والتقنية , وأن التعريب لا غنى عنه من أجل توفير هذه المصطلحات . وأدركوا كذلك أنهم يخوضون صراعاً مريراً مع مخلفات الاستعمار , وما حاول جاهداً ترسيخه في ثقافة الإنسان العربي , فعمدوا إلى مقاومة هذه المفاهيم وأفادوا من خصائص العربية كالاشتقاق والقياس والنحت والترجمة وغيرها.

والحق أن مشكلة التعريب هي مشكلتنا في هذا العصر , إذ أصبح التعريب ضرورة ملحة لبناء الأمة وأساس نهضتها "فقد أصبح من المسلم به كنتيجة لإجماع الآراء أن التعريب ضرورة لبناء الأمة العربية , ومن المرتكزات الأساسية لنهضتها".

دلالات التعريب

تراوح حديث العلماء عن التعريب بين عدد من المفاهيم , فلم يقتصر معناه ومفهومه على التعريب اللغوي وتدخيل الألفاظ الأجنبية إلى اللغة العربية , بل تعدى هذه الدائرة إلى مفاهيم أوسع وأكثر شمولية , فهو نابع من إرادة جماهير الأمة ويعكس طموحاتها وآمالها في الانعتاق من التقليد والتبعية , ويفتح الطريق أمام بناء الدولة العربية الموحدة المعاصرة , ويسهم بدور كبير في القضاء على التبعية الثقافية التي لا تزال الأقطار العربية تعاني منها, هذه التبعية تقف حائلاً أمام كل تقدم فكري أو حضاري في حياة أمتنا , كما أنها كرست ولا تزال تكرس في نفوس أبناء الأمة قصورهم عن الإبداع والخلق والابتكار , مما أدى إلى شبه قناعة لدى المواطن العربي بأنه دون غيره من أبناء الأمم الأخرى , وربما استقر في ذهنه أنه لا يمكن أن يكون مبدعاً , وعليه ان يظل مستهلكاً . وهذا يعني أنه يجب العمل على تحرير التفكير العربي من كل القيود والمفاهيم الزائفة من أجل بناء الأمة العربية المعاصرة , وخلق جيل متحرر الفكر , معرب التفكير ونمط الحياة , واثق من نفسه ومقدرات أمته .

وهذا يعني أن التعريب لابد أن يمس الحياة العربية بكل جوانبها وبكل أبعادها , اجتماعياً وثقافياً وفكرياً وقومياً حتى يكون "الشمول صفة أساسية من صفات التعريب باعتباره قضية قومية مشتركة ".

معاني التعريب ودلالاته عند كمال بشر

وقد حدد كمال بشر معاني التعريب ودلالاته كما يلي :

إخضاع النصوص والأعمال الأجنبية – علمية أو أدبية أو فنية – لشيء من التصرف في مبناها ومعناها وذلك بتطويعها لمقتضيات الظروف وأنماط التقاليد الاجتماعية والثقافة العربية , وجعلها ذات سمة عربية في الإطار العام . فدلالة التعريب هنا تدل على الترجمة العامة للأفكار في العمل

الأجنبي , أو فهم المضمون العام لتلك الأعمال الأجنبية وتهذيبها بما يساير الذوق العربي والحياة العربية , وذلك بالتخلص من النصوص والأمثلة الواردة في تلك الأعمال التي تتنافى مع القيم والمبادئ العربية والإسلامية , واستبدالها بما يفيد الغرض ويناسب الواقع الاجتماعي والخلقي للحياة العربية , أي أن نأخذ الأفكار الرئيسية من الأعمال الأجنبية أو نقتبسها منها ثم نبني عليها.

الترجمة : هذه الدلالة غير دقيقة لأن الترجمة نقل للمعاني لا للألفاظ , أما التعريب فيتعامل مع الألفاظ وينقلها إلى العربية , أو إبقائها كما هي في أصلها الأجنبي , فلا دخل للتعريب في المعاني.

تطويع الألفاظ الأجنبية بردها إلى الصور العربية صوتياً وصرفياً , وهو ما يفهم منه تعريب المصطلحات العلمية والفنية والتقنية .

تحويل الجامعات والكليات الجامعية والمعاهد العليا التي تضم مئات الأقسام العلمية من التدريس باللغات الأجنبية مثل الإنجليزية والفرنسية وغيرها إلى التدريس باللغة العربية , واعتماد اللغة العربية لغة التدريس الجامعي والبحث العلمي والتقنيات الحديثة . وهذا يعني التخلص من الثنائية اللغوية التي لا تزال تهيمن على الجامعات والمعاهد العلمية في الوطن العربي .

إلى جانب ذلك فإن التعريب يعني كذلك : تعريب مؤسسات كل دولة من الدول العربية , وجعل العربية الفصحى وسيلة التفاهم والتخاطب والمكاتبات في كل الدوائر, إضافة إلى تعميم هذه الفصحى لتشمل كل مناحي الحياة المختلفة .

فالتعريب بهذا الفهم هدف استراتيجي يمكن أن يطلق على عدة قضايا ومفاهيم كلها تنصهر بوتقة واحدة , وتمس جوانب الحياة العربية كافة , فهو يعني الشمولية لكل مناحي الحياة في المجتمع العربي , إضافة إلى أنه مقوم أساسي من مقومات الأصالة الثقافية عند العرب , ومن هنا يمكن القول إن التعريب ذو جانبين : جانب لغوي يتركز حول اللغة وقضياها المختلفة , وجانب اجتماعي يتصل بكل جوانب الحياة الاجتماعية.

التعريب اللغوي

إن أول ما يعنيه التعريب اللغوي هو أن تسود العربية الفصحى مناحي الحياة العربية كافة , وأن يعم استعمالها كل أبناء الوطن العربي في أقطارهم المختلفة , فقد عمل المستعمر على محاربة الفصحى بكل الطرق والوسائل , وزرع الشك في نفوس أهلها , وإقناعهم بأنها لغة العصور الوسطى , وهي ليست إلا لغة عاطفة وخيال , لا تصلح للتعبير عن القضايا العلمية والمبتكرات التقنية , كما أنها لا يمكن أن تصبح لغة علمية يعتمد عليها في تسجيل الاختراعات والابتكارات , إيماناً منه أن أية أمة لا تنهض إلا من خلال لغتها القومية , لأن اللغة هي أداة الإبداع وأساس التفكير والترابط بين أفراد المجتمع , فإذا كانت اللغة مشوشة مهمشة كان الفكر الناتج عنها مشوشاً هامشياً.

وقد أدرك الزعماء السياسيون في العالم أهمية اللغة القومية في توحيد أبناء الوطن , والتفاهم حول الأهداف التي ينادون بها , كما آمنوا بأن أي تغيير داخل المجتمع لا يكون إلا بلغته القومية , فإذا كنا

في الأمة العربية نطمح إلى التطور الفكري والثقافي فإنه يتحتم علينا أن ننظر إلى لغتنا باعتبارها أهم الأسس التي يبني عليها هذا التطور , ولابد من العمل على حمايتها وتطويرها .

هنا تكمن أهمية التعريب الذي يعني بهذا الفهم استعمال اللغة العربية في كل شؤون الحياة وعند أبناء الأمة كلهم , وخلق وترسيخ الانتماء إليها , والعمل على إتقانها , وخلق شعور الاعتزاز والفخر بها , وتكريس الفهم بأنها أساس الوحدة العربية المنشودة , كما أنها هي التي خلقت هذه الوحدة , وحافظت عليها أمام كل محاولات التجزئة والتقسيم لكيان هذه الأمة , فكل " شعور بوحدة الأمة العربية مرتبط أصلاً برباط اللغة التي هي الجامع الأساسي بين أفراد الأمة ".

وإذا كنا ندرك أهمية التحرر الثقافي وضرورته ,وإنهاء حالة التبعية الثقافية التي تعيشها أمتنا فلابد لنا من العودة إلى لغتنا والعمل على تطويرها لتصبح لغة علمية عالمية .

التعريب الاجتماعي

إن إتمام عملية التعريب اللغوي لا يعني أننا قد تغلبنا على المشاكل والعقبات التي تحد من تطور حياتنا اللغوية وتحول دون تحقيق النهضة العربية الشاملة . فهذا الجانب من التعريب قاصر عن تمثيل الدور الحضاري الذي نريده , وعن تحقيق الطموحات التي نصبو إليها , وهو غير قادر على إخراجنا من دائرة التبعية الثقافية وتقليد الأمم الأخرى . ولا يتحقق ما نريد إلا بإكمال الشق الثاني من التعريب وهو التعريب الاجتماعي , فإذا أردنا تحقيق هذا الشق من التعريب , فلابد من دراسة مجتمعنا – بكل جوانبه – دراسة دقيقة واعية , والغور إلى نفسيات المواطنين ومعرفة طرائق تفكيرهم والمؤثرات التي تؤثر فيها , فإذا عرفنا تلك المؤثرات , عرفنا الصعوبات التي تحول دون نمو اللغة وتطويرها.

إن من أهم الجوانب السلبية في هذا المجال سيطرة سلطان اللغات الأجنبية على عقول قطاع واسع من المسؤولين في الوطن العربي , وهو ما أدى إلى تقديس تلك اللغات , حتى أصبح كثير من هذا القطاع يحاول جاهداً أن يطوع اللغة العربية لمعايير اللغات الأجنبية ومقاييسها , ويخضعها لقوانينها , متناسياً أن لكل لغة طبيعتها المستقلة الخاصة التي تميزها عن غيرها من اللغات .

فإذا كنا مصممين على إنجاح التعريب , وجب علينا مقاومة هذه المفاهيم وإلغائها من عقول أبناء الأمة , والعمل على خلق الثقة في نفس المواطن العربي وإقناعه بأنه هذه المفاهيم من بقايا الاستعمار ومخلفاته التي لا يزال ربائبه وأعوانه يعملون على ترسيخها لدى أبناء الأمة , فلابد من إقناع المواطن بزيف هذه الإدعاءات , وبأن أمتنا قادرة على بناء النهضة الحضارية كما حصل مثل هذا إبان عصور الازدهار الإسلامية , وأنها ليست بحاجة إلى من يساعدها في هذا الأمر , وأن نهضة الأمة الحقيقية والأصلية هي التي تنبع من داخلها وبهمة رجالها وإبداعات علمائها وابتكاراتهم , لذا وجب العمل على مسح الأفكار التي أدت إلى تكوين مركبات النقص هذه ونزعت الثقة من النفوس .

إن هذا التوجه هو البداية الحقيقية لإنجاح عملية التعريب , لأنه الطريق الوحيد لتعريب الإنسان العربي , فإذا تعرب الإنسان فإن عملية التعريب يتم إنجازها بسهولة ويسر.

ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن تعريب التعليم في كل مراحله من أهم جوانب التعريب , التي يجب العمل على تحقيقها , وإن عدم تحقيق التعريب الجامعي يعني أن أمتنا لا تزال ناقصة السيادة , لأنها غير قادرة على الاستغناء عن الخبرات الأجنبية في العملية التعليمية , وأن التنشئة الفكرية للأجيال القادمة ستكون ناقصة لأنها ليست عربية الأداة . فتعريب التعليم يعني الانعتاق من التبعية , الثقافية واستكمالاً للسيادة القومية , والتحرر الكامل من كل روابط الاستعمار ووشائجه "إن تعريب التعليم جملة وتفصيلاً والعالي بخاصة هو استكمال للاستقلال ورفض للتبعية الثقافية واللغوية , أو لبقاياها وترسباتها ". كما أن عدم تعريب التعليم يعني أن لغتنا عاجزة عن التعبير عن متطلبات العصر و مستجداته , وهي غير قابلة للتطور والتجديد "إن التعليم بغير اللغة العربية ذو أثر خطير في اللغة نفسها فهو يعزلها عن العلم وعن التطور والتجديد , فإذا هي بالفعل عاجزة وقاصرة".

كما أن بقاء التعليم باللغات الأجنبية ذو أثر نفسي على طلابنا , إذ يشعر الفرد أن العربية غير صالحة للعلم والحضارة والمستقبل , إذ لو كانت صالحة لذلك لوجب استخدامها لغة العلم , وهذا ما يجعلهم مقتنعين بضرورة إحلال لغة أخرى محل العربية .

أهمية التعريب

لم يعد التعريب مقصوراً على الجانب اللغوي فقط , واتضح "أن الذين ينظرون للتعريب نظرة لغوية فقط يجردونه من مضمونه ومن حقيقته" لأنه أصبح ذا صفة شمولية تغطي جوانب الحياة المختلفة داخل المجتمع العربي , ولم يعد مقصوراً على المصطلحات والمعاني فقط , إنه مسألة تفكير أولاً وقبل كل شيء ثم مسألة تعبير , فكل لغة تعكس صورة صادقة لحضارة أمتها وثقافتها , وتعبر عنهما تعبيراً أميناً ودقيقاً , ولكل لغة أسلوبها المميز في طريقة التفكير وكيفية التعبير عنه , وهذا ما يجعل للتعريب أهمية كبرى تتناول جوانب الحياة العربية كلها .

إن التعريب بهذا المفهوم يعني أول ما يعنيه تعريب الإنسان العربي الذي ضعف انتماؤه لهذه الأمة بفعل كثير من العوامل والممارسات الاستعمارية , ووصل إلى شبه قناعة بأن الانتماء للعروبة يعني شيئاً من الانحطاط الفكري والتخلف الحضاري , من هنا كان لابد من العمل على أن يعي هذا الإنسان ذاته , وأن يثق بنفسه وبأمته , كما يجب أن يتصف بصدق الانتماء وعمقه لهذه الأمة , وأن يجري حبها في عروقه , ويلتزم الدفاع عنها , وعن مقدرتها بكل الطرق والوسائل , وأن يكون حبه وإخلاصه لأمته تاماً مطلقاً لا تشوبه أية شائبة , عندئذ يزدهي بنفسه وأمته ويفاخر بانتمائه لها ,وهذا ما يخلصنا من مركبات النقص وعقده .

إن قناعة الإنسان العربي بهذه المفاهيم , وإدراكه أن لغته هي ذاته وعنوانه وممولة الفكري , وأن شخصية الأمة واستقلالها السياسي الحقيقي وسيادتها الكاملة تأبى إلا أن تكون لغتها هي لغة الحياة , لغة التعلم والبحث العلمي , وهو ما يقود إلى إنجاح عملية التعريب في كل مراحل التعليم .

إن نجاح عملية تعريب التعليم سيؤدي إلى تعريب الفكر, لأن تعريب العلم هو تعريب للفكر والتفكير , فالفكر هو الجوهر الأساسي في هذه العملية , فعلينا أن نعمل على تنمية الفكر العربي وتعميقه حتى لا يوصف بالسذاجة والسطحية والهامشية , وتتم هذه التنمية وذلك العمق باكتساب الخبرة وبمد الثقافة وتعميقها , فانتشار الثقافة واتساع ميدانها وعمقها سيؤدي حتماً إلى عمق التفكير ونموه وهو ما يؤدي إلى المقدرة على الخلق والإبداع .

وتعريب الفكر سيؤدي إلى هضم ما أخذه العرب عن غيرهم من العلوم والفنون ثم تمثله تمثلاً صحيحاً قادراً على العطاء والإبداع الذي نسعى إليه "لأن الإبداع والابتكار لا يتولدان إلا بعد تمثل صحيح للمعطيات ". هذا الجانب من التعريب "الفكري" سيعزز ثقتنا بأنفسنا ولغتنا , ويحثنا على الكتابة بلغتنا العربية , من أجل تأمين الغذاء الفكري الكافي لأبناء الأمة , هذا الغذاء هو الذي سيسهم في ملء الفراغ الفكري القاتل الذي يعاني منه معظم الشباب في أرجاء الوطن العربي .

المحاضرة الرابعة عشر

التعريب

ماهيته , أهميته , معوقات تحقيقه

(2)

معوقات تحقيق التعريب :

للتعريب رسالة هامة تكمن في تخليص النفس العربية من كل الشكوك التي رسخها أعداء الأمة في نفوس أبنائها , فقد أصبح فريق من أبناء الأمة يبحث عن كيفية التخلص من العروبة والانتساب إلى العرب وكل ما يربطه بهم وبلغتهم . فثار على كل القيم والعادات والتقاليد , مدعياً أنها قيم بالية , وعادات قبيحة , وتقاليد مهترئة, لأنه اقتنع برفض كل ما على العربية وعزا لها التخلف والجمود وعدم القدرة على مواكبة روح العصر , ونسب إليها سبب التأخر الذي تحياه الأمة العربية .

ومن هنا دأب على العمل من أجل الخلاص من اللغة العربية , ويحاول استخدام أية لغة أجنبية تقوده – بزعمه – إلى أن ينتسب إلى مجتمع راق متفتح , ليس لسلوكيات أهله حدود أو ضوابط , فكل شيء فيه مباح , ويمكن للمرء في هذا المجتمع فعل ما يريد , وغاب عنه أن "أية لغة أجنبية إذا أخذت بها الطبقات الأكثر نفوذاً في المجتمع , سواء في تعلمها أو استعمالها فسوف لن ينظر إليها كلغة أجنبية , وسوف تصبح لغة مشتركة تؤدي في نهاية المطاف إلى طرد اللغة القديمة من خلال تفتيتها إلى لهجات تم تداعيها".

ولا يكتفي هذا الفريق باستخدام لغة أخرى إلى جانب اللغة العربية , بل يحرص كل الحرص على تعليم أطفاله لغة أجنبية أو أكثر , يرى أنها لغة المستقبل , وغاب عن هذا الفريق أن "الطفل ابن الخمس سنوات , يستطيع خلال أربعة أشهر أن يكتسب لغة أخرى , وينسى تماماً استعمال الأولى أو فهم حتى أقل قدر منها ". وكأن هذا الفريق يعمل – بقصد أو بدون قصد – على إقصاء اللغة العربية من الحياة , والقضاء عليها بعدم استعمالها , وبهذا يحقق القضاء على الأمة العربية كلها .

ونسي هذا الفريق أو تناسى أن سبب التأخر عندنا هو نحن أنفسنا , وليس للغة دور فيه , فإذا أردنا أن ننهض أو نتطور في كل مناحي الحياة , فعلينا ألا نتكل على الآخرين , ونقترض منهم كل ما نحتاج إليه من ألفاظ , دون أي محاولة للاعتماد على النفس في سد حاجاتنا من هذه الألفاظ , ولغتنا قادرة على ذلك بما تتمتع به من خصائص ومزايا تؤهلها لأن تكون لغة علمية عالمية وقد كانت كذلك فيما مضى

كما علينا أن نوقن العزم ونؤكده على إنتاج كل ما ينقصنا من الثقافة , ونبتكر ونبدع كما يبتكر الآخرون ويبدعون , وعلينا أن نستقل علمياً وفكرياً وثقافياً ألا نكون تابعين في أي منحى من مناحي الحياة أو جانب من جوانبها .

الأخرى , إذ يجعلنا قادرين على وضع أسماء مخترعاتنا وإبداعاتنا بلغتنا القومية مما يترتب عليه تناقص اعتمادنا على الاقتراض من اللغات الأخرى , وهو ما يصل بنا إلى الاستقلال التام عملياً وثقافياً واجتماعياً.

والتعريب مطلب قومي ملح نابع من إرادة الجماهير العربية , وهو يعني فيما يعنيه إحلال اللغة العربية محل اللغات الأجنبية في التعليم مما يخلق لدى طلابنا وأجيالنا الثقة بلغتهم وأمتهم ومن ثم في نفوسهم , ويقودهم نحو الخلق والإبداع.

كما يعني توسيع اللغة العربية , وإثرائها بإدخال صيغ ومصطلحات جديدة إليها لتستطيع التعبير عن مستجدات العصر , وهو يعني كذلك أن تصبح العربية لغة التخاطب في مجالات الحياة المختلفة , وفي كل أرجاء الوطن العربي , وهو يحرص على عدم استخدام أية لغة غير العربية في كل مؤسسات وإدارات الوطن العربي , إنه يعني سيادة اللغة العربية في المجتمعات العربية كافة , وعلى كل المستويات الحياتية المختلفة , وفي كل مناحي الحياة , ويعمل على مجابهة كل ما يحد من انتشار العربية من مشكلات , وكل ما يقف حائلاً دون تعميمها , من أجل أن تصبح لغة الحياة والعلم .

عدم الاهتمام باللغة العربية والعمل على نشرها :

الاهتمام باللغة العربية يعني المحافظة عليها , والعمل على تطويرها وحمايتها , وكذلك العمل على انتشارها , لأن انتشارها يعني عملية التعريب , والعمل على نشرها يعني العمل على إنجاح التعريب , وهناك مشكلات كثيرة تحول دون انتشار العربية , كتخلف المستوى العلمي

وضعف التعليم , وقلة المراجع العلمية والتأليف العلمي العربي , وقلة التنسيق الثقافي والعلمي في الوطن العربي , واللهجات وإغفال نشر العربية خارج حدود الوطن العربي .

إن تخلف المستوى العلمي وضعف التعليم في الوطن العربي من أهم المشكلات التي تحد من انتشار العربية , فالتعليم هو أساس كل تقدم حضاري , كما أنه أساس كل نهضة اجتماعية , وبه يحكم على المجتمع من حيث التطور سلباً أو إيجاباً , فالمجتمع الذي يعيش مستوى علمياً متدنياً لن يتوفر لأبنائه فرص التعليم الجيد الذي ينمي قدراتهم ويصقل مواهبهم بالقدر المطلوب الذي يتيح لهم فرص الإبداع والخلق .

إن التخلف العلمي وضعف التعليم سينتج عنه حتماً ضعفا في اللغة القومية التي هي أداة الفكر , ووسيلة الإبداع , وإذا عدمت اللغة الإبداع والخلق تحجرت داخل المجتمع الذي تعيش فيه , وانعزلت عن اللغات الأخرى , وفقدت إمكانية كونها لغة عالمية .

ومن الأسباب التي حدت من انتشار اللغة العربية فقدان التنسيق العلمي واختلاف التوجه الثقافي بين الأقطار العربية , مما أدى إلى وجود سياسات تعليمية وتثقيفية عربية مختلفة , نتج عنها اختلاف البرامج التعليمية والتثقيفية عند العرب , وترتب عليه اختلاف في فهم القضايا العلمية والثقافية واستيعابها , وهو ما يقود بدوره إلى وجود ثقافات متباينة بين أفراد الأمة , ويؤدي إلى ضعف الترابط بينهم , وسيكون سبباً في قلة الإنتاج العلمي والأدبي , إلى جانب تشتيت القدرات العلمية , والطاقات الخلاقة للأمة , ويؤثر سلباً على انتشار العربية , والارتقاء بها لتصبح قادرة على مواكبة تطورات العصر , والتعبير عن كل المستجدات .

وكلما نمت اللغة وارتقت كانت أقدر على الإنتاج والابتكار , وأقدر على تغطية ما يدور في الفكر من القضايا , والتعبير عنها . كما أن الفكر يصبح أكثر حركة واتقاداً لأنه يملك لغة قوية قادرة على مجاراته والتعبير عنه.

فلابد من تضافر الجهود من أجل رقي اللغة والارتقاء بها , لأن الرقي اللغوي يحقق للعمل الفني سبباً تعبيراً , ويجعله قادر على التأثير المباشر في الجمهور .

الأمية :

الأمية تعني الجهل والتخلف , إنها تعني الفقر والمرض , فالإنسان الأمي إنسان ضعيف عاجز , مهزوز الثقة بنفسه , لا يعرف ذاته بكل أبعادها , إنه متردد في سلوكه لا يستطيع أن يقوم بأعماله بثقة في نفسه , إنه مسلوب الإرادة , قاصر التفكير , ينظر إلى الأمور بمنظور مخالف , منظور غير واقعي , لأنه لا يستطيع تحديد المسائل ووزنها بدقة وعناية.

فالمجتمع الذي تغلب الأمية على أفراده , مجتمع متخلف في كل مناحي الحياة , لأن الأمية عنوان الانحطاط الفكري والقصور التعبيري , إنها رمز لكل جمود وتحجر , ولا يمكن أن تتصور أمة متخلفة تسعى للخلاص من تخلفها دون أن تكون عازمة على محاربة الأمية والقضاء عليها ,

ودون أن تكون جادة بالنهوض السريع بلغتها , لأن النهوض باللغة القومية والارتقاء بها يعني بداية نهضة حضارية شاملة في كل الجوانب الحياة , إنه يعني بداية صحيحة حقيقية جادة لبناء المجتمع على أسس علمية وفنية ثابتة يقوم عليها البنيان المنشود .

وإذا نظرنا إلى المجتمع العربي وجدنا أن الأمية لا تزال متفشية بنسبة كبيرة من أفراده , فهناك أقطار عربية لا تزال الأمية بين أفرادها تزيد على 50% , وهذا يعني أن تلك الأقطار غير قادرة على وضع خطط دقيقة شاملة للتنمية والنهوض الحضاري , لأن الأمية تحول دون أي تقدم أو تطور ,إنها من أهم المشاكل التي تحول دون تحقيق التعريب بجوانبه المختلفة , فلابد من العمل الجاد المخلص من أجل النهوض باللغة العربية , لأن نهوض اللغة سيحقق السبب التعبيري والجمالي لكل عمل فني , فكل موقع يتحرر من الأمية , يدخل مرحلة جديدة تسير به قدماً نحو التعريب الذي هو بداية لكل تطور حضاري "من هنا كان حتماً أن ترتبط أهداف التعريب في هذا المنطلق بمبدأ القضاء على الأمية , وهو الانتهاء بإدارة البحوث العلمية والتكنولوجية بعقلية عربية منفتحة على معارف العالم المتطور وعلى لغاته ".

إن ما تقوم به الأقطار العربية من برامج لمحو الأمية يعد خطوة هامة في سبيل القضاء على الأمية , كما أن تعميم التعليم ومجانيته وإلزاميته أمر هام وخطوة إيجابية من أجل التخلص من داء الأمية وقيودها , وبتحقيق هذا المطلب يصبح بناء العملية التنموية في كل أقطار الوطن العربي سهلاً وميسوراً , كما يمكن من التغلب على مركب النقص الذي يعاني منه الكثير من أبناء أمتنا لجهلهم وعدم قدرتهم على تحليل الأمور تحليلاً منطقياً , وفهمها دقيقاً .

يسهم انتشار الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية في إضعاف اللغة الأم والقضاء عليها , إلا أن الثنائية أشد خطراً على اللغة القومية , لأنها سبب من أسباب القصور الفكري والتخلف الإبداعي , لأن فرص الإبداع لدى الباحث الذي يفكر بلغته الأم ويكتب بها أكثر وأرحب منها عند غيره الذي يفكر بلغة ويكتب بلغة ثانية

إن من يقرأ كتاباً بلغته الأم يبذل مجهوداً واحداً لفهم معانيه والوقوف على أسراره , أما من يقرأ كتاباً بلغة أجنبية فإنه يبذل مجهودين , أولهما لفهم اللغة الأجنبية وترجمتها , وثانيتها لفهم المضمون العام الذي يشمل عليه الكتاب , وهذا يترتب عليه ضياع للوقت , وعدم الدقة في المواءمة بين فكره ولسانه , وهو ما يجعله غير قادر على الإبداع والخلق , لأن من "شروط الإبداع الفكري , أن يكون المبدع موائماً بين فكره ولسانه , وأن يكون اللسان ترجماناً آلياً للفكر , لا أن يصرف المفكر قسماً كبيراً من جهده في ترجمة فكره بلغة لسانه ", لأن بين اللغة والفكر رابطة قوية لا تنفصم فهما وجهان لعملة واحدة . لذا يجب ألا يفصل بين الطفل ولغته الأم , ويجب العمل على ترسيخها في عقله ووجدانه.

فالأمة التي تهتم باللغات الأجنبية , وتحرص على تعليمها لأبنائها في سن مبكر , تضع لغتها القومية في سباق قد يكون غير متكافئ مع اللغات الأخرى , فإذا حصل هذا الانتصار وأصبحت اللغة الأجنبية هي اللغة القومية وأصبحت اللغة الأم تابعة لها , اختل التوازن الفكري والاجتماعي

لتلك الأمة , وأصبحت مسلوبة الإرادة , عاجزة عن التطور والنمو العلمي والحضاري , أسيرة لغيرها من الأمم "إذ يستحيل على أي شعب ما أن يغير مصيره إلى الأفضل بواسطة لغة أجنبية عنه , والشعب الذي يفقد حريته واستقلاله ".

إن السماح للغة أجنبية أن تزاحم اللغة القومية للمجتمع يعني السماح للفكر الأجنبي بالسيطرة التامة على حياة ذلك المجتمع , فإذا استكان ذلك المجتمع للثقافة تكيف روحياً مع مزايا تلك الثقافة وخصائصها , وخضع لكل قيمها ومبادئها , مما يعني انعدام شخصية الأمة الحقيقية الأصلية , وانقطاعها عن تراثها , مما ينتج عنه شخصية مشوهة لتلك الأمة , لا تتضح لها لغة قومية , كما لا يتضح لها فكر قومي حر , لأن اللغة مرآة الفكر , ومعين التراث , وذاتية المجتمع , وهي الوطن الروحي لكل شعب من الشعوب.

إن هذا الصراع بين الأصالة الثقافية والحضارة المستوردة الذي نشهده في الأقطار العربية ناتج عن هذه الثنائية اللغوية البغيضة التي تحول دون تحقيق التعريب , ودون سيادة لغتنا العربية في مجتمعنا العربي . هذا الصراع يجعل الشخصية الثقافية العربية باهتة مهزوزة , كما يجعلها ثقافة غير كاملة , وهو من أهم العوائق التي تقف حائلاً أمام أي تقدم حضاري أصيل نسعى إليه .

إن هذه المرحلة من حياة أمتنا , التي يغلب عليها التردد والتعثر وعدم الجدية في وضع برامج علمية ثقافية محدودة واضحة من أجل بناء حضارة حقيقية , ناتجة عن استيراد التقانة الأجنبية , مصحوبة بلغات البلدان المنتجة لتلك التقانة وثقافتها .

فإذا أردنا أن نبني حضارة عربية أصيلة , وجب علينا أن نعمل جاهدين على تعميم لغتنا في كل مناحي حياتنا , وتعريب العلم والفكر والثقافة , لنكون منتجين للتقانة لا مستوردين لها , إن هذا النهج الذي نهجه الآن لن يخرجنا من دائرة التبعية الثقافية والحضارية للبلدان الأجنبية التي نستورد منها العلم والتقانة إلى جانب لغاتها وثقافتها .

الازدواجية اللغوية :

يقصد بالازدواجية اللغوية وجود مستويين لغويين لدى الفرد أو في المجتمع , أحدهما أصل هو اللغة الأم , والآخر هو اللهجة المحلية (العامية), وهذا التفرع ناتج عن التطور اللغوي الذي يلزم اللغة في كل مراحل حياتها . فالازدواجية ليست حكراً على لغة دون أخرى , بل هي ظاهرة في جميع اللغات , وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنها امتداد لازدواج العقل والحس عند الإنسان فقال :"هذه الثنائية التي بين العقل والحس " نقصد بين الوجدان المنطقي والوجدان العاطفي " وهي عينها التي نجدها في اللغة بين العامية والفصحى. ويعني ثانياً أن الازدواجية في اللغة ليست وقفاً على العربية وحدها , ففي كل لغة لسان عامي ولسان فصيح ".

هذا اللسان العامي انشعب عن الفصيح , واختلف عنه في كثير من مظاهر الصوت والقواعد والدلالة والمفردات , وتفرع إلى لهجات محلية انفرد كل منها ببعض الخصائص نتيجة للظروف الخاصة بهذه اللهجة أو تلك , وقد خسرت هذه اللهجات كثيراً من صفات اللغة الأمة وخصائصها ,

فأصبحت فقيرة في ثروتها اللفظية , مضطربة في أساليبها وقواعدها , مختلفة في معاني ألفاظها ووظائفها داخل الجملة , حتى إن ترابط هذه الألفاظ داخل الجمل ضعيف ولا يفي بالغرض , ولا يمكن لهذه العاميات أن تحل محل الفصحى وتغني عنها , فهي غير قادرة على التعبير عن المعاني والأساليب والحقائق العلمية والقضايا الأدبية والفكرية بدقة تامة . وإذا حاولنا استخدامها بدلاً من الفصحى كنا نعمل على القضاء على كل إبداع وابتكار , لأنها لغة ضعيفة مقيدة مشوهة , ولغة كهذه سينتج عنها فكر ضعيف قاصر , ليس أهلاً للنهوض بالأمة , لأن الفكر الناضج يتطلب لغة قوية رصينة تسعفه في التعبير , فإذا فقد هذا الأمر ضعف شأنه وضاق مجاله , وأصبح مقتصراً على سفاسف الأمور,كما أن اللغة هي الرافد الأساس للفكر, وهي القالب والمستودع الذي يختزن الفكر , فإن ضاق هذا واختل وضعه , ضاق مجال الفكر واضطراب إنتاجه .

المصطلح :

يعتبر كثير من الباحثين والمفكرين أن نقص المصطلح العربي هو المشكلة الوحيدة التي تحول دون تحقيق التعريب الشامل , إذ يرون أن عدم توفر المصطلحات هو أساس المشكلة , فلو توفرت هذه المصطلحات لانتهت المشكلة , ولأمكن أن يعم التعريب كل أرجاء الوطن العربي , وكافة جوانب الحياة العربية , إلا أن هذا الفهم غير دقيق , لأن عدم وجود المصطلح ليس هو المشكلة , بل المشكلة هي المقدرة على فهم المعاني المستجدة والتعبير عنها , "إن قضية المصطلح من حيث هو ألفاظ يعبر بها عن مسميات ومعان مفردة – ليس بصميم المشكلة – بل قد تكون – على مالها من شأن – أهون جوانبها , وإنما صميم المشكلة هو الاقتدار على وعي المعاني العلمية وتصويرها ثم الإبانة عنها".

إن التمكن من مسائل العلم ومفاهيم المصطلحات , والإحاطة الشاملة بكل ما عرفته العربية من الألفاظ الجديدة , وبكل ما تحتاج إليه من هذه الألفاظ , كل ذلك يخلق القدرة على توليد المصطلحات في كل مجالات العلوم والفنون , فالمصطلح "هو اللفظ أو الرمز اللغوي الذي يستخدم للدلالة على مفهوم علمي أو فني , أو أي موضوع ذي طبيعة خاصة ".

إن عملية الاصطلاح لا تحتاج أن يكون المصطلح مطابقاً تماماً للمسمى بكل خصائصه وأبعاده , فيمكن وضع المصطلح لأقل مناسبة للمعنى . فليس ضرورياً أن تطابق المفردة التي اصطلح عليها المعنى العلمي تطابقاً تاماً , فقد يطلق اسم المستكشف , أو بعض الأسباب والملابسات التي أدت إلى هذا الاكتشاف أو أسهمت فيه . والضروري هنا الاستعمال الذي يجذر هذا الأمر , ويجعل اللفظ المصطلحي يشير إلى مسماه , كما أن كثرة استعمال ذلك المصطلح هي التي تشعرنا بصحته , وبأنه يدل على ذاك المسمى , ويشير إليه بكل دقة ووضوح "ولا ننسى أن المصطلح يوضع لأدنى ملابسة بالمعنى , وحتى هذه المصطلحات الأجنبية نفسها ليست دلالتها اللغوية البسيطة مؤدية معانيها العلمية الدقيقة . لولا أنها اصطلح بها لهذه الأغراض , ومن ثم فليس من الصعب إطلاقاً الاصطلاح بمقابلات عربية لها

من دون انقياد لشكل تركيبها إذا استعان المشتغل بالعلوم بأهل اللغة في ذلك".

فعلى علمائنا أن يصطلحوا , وسيقوم الجمهور باستخدام هذه المصطلحات واستعمالها , وهذا الاستعمال هو الذي يحدد الأفضل والأصلح منها , ويقره لفظة معروفة دالة محدودة الدلالة , فعملية الحصول على المصطلح العلمي الحقيقي لا تتم إل بعد استعمال اللفظ الذي اصطلح عليه , "فليس من المفروض أن يجد أهل العلم عند المجامع والهيئات المعنية بالتعريب مصطلحاً جاهزاً لكل فكرة عملية دقيقة , أو كشف علمي جديد , إنما يضع العلماء أنفسهم اللفظ العلمي وهم يستعينون أهل اللغة في ذلك كلما دعت الحاجة إليه".

وعلى الباحث ألا يلجأ إلى تعريب اللفظ الأجنبي يدخله إلى العربية على علاته , معتمداً على مقولة باطلة هي أن هذه الألفاظ عالمية , تستعمل في كل دول العالم . بل لابد من البحث في اللغة العربية , ومحاولة الإفادة من كل إمكاناتها من أجل إيجاد مقابل لذلك اللفظ , فإن تعذر عليه ذلك لجأ إلى تعريبه.

كما يجب أن تكون عملية الاصطلاح مقننة على مستوى الوطن العربي , لا أن تكون حسب أهواء الأفراد وعلى أمزجتهم , كل يعمل على شاكلته دون رقيب ودون اعتبار المصلحة العامة , وقد نتج عن هذا تعدد المصطلح في الوطن العربي وترتب على ذلك أن أصبح كل قطر من الأقطار العربية يرى أن ما وضعه هو الصواب , مما ينذر بوجود أكثر من لغة عملية في هذا الوطن . من هنا نرى ضرورة توحيد المصطلحات في الوطن العربي , حتى نتمكن من خلق لغة علمية عربية واحدة يفهمها كل العرب , وتحد من فوضى المصطلحات – التي نتجت عن نقل كل مبتكرات ومستجدات العصر , والتي أدت إلى بلبلة الفهم , وخلط غير يسير في فهم دلالات المصطلحات وتحديد معانيها بدقة – حتى يمكن هضمها وتمثيلها , ومن ثم التعبير عنها بدقة , واستخدامها بشجاعة في البحوث والاكتشافات .

أهم النتائج

بعد هذا العرض لقضية التعريب وأبعادها وأهميتها والأسباب التي تحول دون تحقيقها , تسوق النتائج التالية :

التعريب قضية هامة لا تقتصر على تعريب المفردات فقط , بل يتسع ليشمل كل جوانب الحياة العربية , كما يشمل الإنسان العربي ذاته الذي يجب تعريبه كذلك .

لا يمكن لهذه القضية أن تنجح وتحقق أهدافها إلا إذا صح انتماء أبناء الأمة العربية وصدقهم , وإذا وعى الإنسان العربي ذاته وعياً حقيقياً وعرف نفسه والمطلوب منه.

من أهم معوقات التعريب : عدم الاهتمام باللغة العربية وإهمال نشرها خارج حدود الوطن , والأمية التي هي عدو كل نمو وتطور , والازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية لأنهما عدوان لدودان للعربية

الفصحى , وضعف الانتماء لدى الإنسان العربي . كل هذه معوقات للتعريب , ولا يمكن لهذه التجربة أن تنجح وتؤتي أكلها إلا بالعمل على التخلص من كل ما يقف عائقاً في وجهها .

إن تعريب التعليم في أقطار الوطن العربي قضية هامة , وهو الذي يوصل إلى تعريب الفكر , الذي يقود إلى تعريب الثقافة والنهوض بالأمة لغوياً وفكرياً وثقافياً , كما أنه يقود إلى الاعتماد على العربية الفصحى في كل مناحي الحياة العربية , وينقلها من وضعها الحالي إلى اللغة العلمية القادرة على مواكبة التطور العالمي لتأخذ مكانها الحقيقي والطبيعي بين لغات العالم .

اسأل الله لي ولكم التوفيق والنجاح

اعداد: لغتي الصامدة